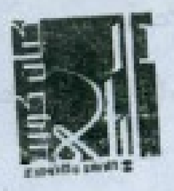

شاي
بالنعناع
مقالات
د. أحمد خالد توفيق
دار ليلى

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى





كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

الكتاب:

شاي بالنعناع

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

رقم الإيداع:

2012/1912

الترقيم الدولي:

978-977-5238-03-0

* * *

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

* * *

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

* * *

المهندسين- 23 شارع السودان- تقاطع مصدق- الدور الرابع- مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885296 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com



مقدمة

أكتب منذ فترة مقالاً شهريًا لمجلة (الشباب) الصادرة عن الأهرام، وهي مرحلة ثانية بعد ما كنت أكتب قصص رعب شهرية تحمل عنوان (الآن نفتح الصندوق). ثم طلب مني الصديق محمد عبد الله رئيس تحرير مجلة الشباب الحالي أن أغلق الصندوق و(كفايه كده)؛ فبدأت سلسلة مقالات اسمها (شاي بالنعناع)، سوف استمر فيها إلى أن أموت أو يطردوني أو يمل القارئ مذاق الشاي بالنعناع.

سعدت جدًا بتحرير هذه المقالات، لأنها تعطيني حرية في اختيار موضوع المقال، فالقارئ لا يتوقع مني شيئًا بعينه.. ليس مقالاً سياسيًا كما يتوقع قارئ الدستور ومن بعده التحرير، وليس مقالاً قصيرًا ساخرًا كما يتوقع قارئ دنيا الاتحاد، وليس مجالاً علميًا صارمًا كما يتوقع قارئ العربي الكويتي، وحتى موقع (بص وطل) يتوقع نوعية معينة من المقالات...

هكذا أخذت راحتي في هذه المقالات، وكان عنوان (شاي بالنعناع) مناسبًا

جدًا لها، لما يوحي به من (روقان) وصفاء ذهن وانتشاء. على أن هناك مشكلة صغيرة برزت عندما قدمت لي الصديقة الشابة الرقيقة (دعاء شعبان) مجموعتها الأولى من القصص والمقالات التي تحمل عنوان (شاي بالنعناع). أنا أكتب مقالاتي قبل أن أرى مجموعة دعاء، وأنا متأكد من أنها لم تستعر عنوان مقالاتي؛ فالشاي بالنعناع أصيل ومهم في قصصها. لهذا أعتبر ما حدث توارد خواطر، وبرغم هذا طلبت منها الإذن في استعمال هذا العنوان لأن كتابها صدر أولاً، وقد قبلتْ ذلك..

هناك كذلك طابع واضح لمقالات ما قبل الثورة وما بعدها، برغم أنني حرصت على البعد عن السياسة، فالسياسة كالضباب يتسرب لبيتك من تحت الأبواب وعبر النوافذ المواربة.. لذا لابد أن تجد الكثير منها، ولهذا قررت أن أقسم الكتاب إلى قسمين واضحين هما ما قبل وما بعد الثورة.

سوف تجد كذلك مقالاً في مدح فنان الكاريكاتور العظيم حجازي، وكم أتمنى لو كان قرأه قبل رحيله. فقد فارقنا بعد نشر المقال بشهرين!

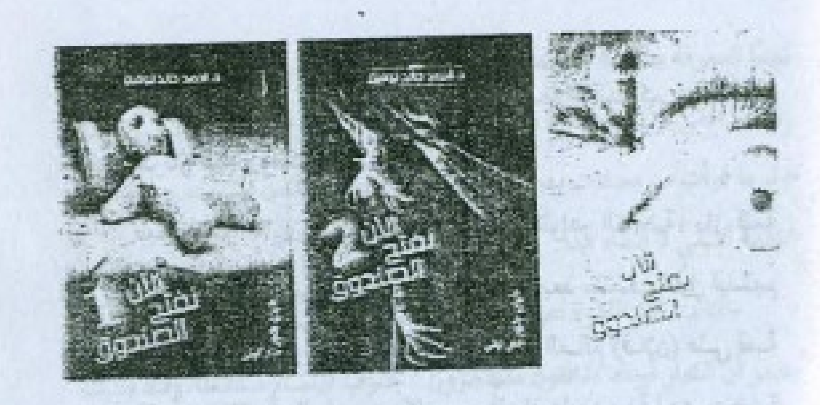
أرجو أن تروق لك هذه المجموعة.. ومن جديد أكرر أن الشيء الذي يميزها هو الصدق والحرارة. فيما عدا هذا يمكنك أن تنتقدها أو تطريها كما شئت.

د. أحمد خالد توفيق

Aktowfik.new@hotmail.com

أشهُر

ما قبل الثورة



الآن نغلق الصندوق!

ستة أعوام تقريبًا!.. لم أصدق الرقم إلا عندما عدت لملفات الكمبيوتر، واكتشفت أننا فتحنا صندوق د. محفوظ لنخرج أول قصاصة ورق في نوفمبر عام 2004، ومنذ ذلك الحين تخرج قصاصة كل شهر لنطالع ما بها، وها هي ذي القصاصات قد انتهت.. يخيل لي أنني بدأت الكتابة هنا منذ عامين لا أكثر، لكن هذا ديدن الأعوام الأخيرة.. تزداد قصرًا كأنها ليست أعوامًا ولكن أعمدة هاتف نراها تركض متدافعة من نافذة قطار.

يبدو أن الوقت قد حان لنغلق الصندوق. حان الوقت كي يصمت د. محفوظ الثرثار قليلاً، وأتكلم أنا.

طبعًا ينتظر القارئ مني أن أتكلم عن بعض الظواهر الغامضة؛ مثل قلعة اللورد فلان في اسكتلندا حيث يمشي شبح الكونتيسة بعد منتصف الليل ليلتهم أذن من يكون هناك، أو الرسوم الغامضة التي وجدها العالم (فلان) على قمة جبل في التبت، وتؤكد أن الهامبرجر كان معروفًا منذ مليون سنة لدى حضارة أخرى.. الخ.. يسمون هذا الكلام الفارغ (الظواهر الفورتية Fortean) وهناك أطنان منه على كل حال، ومن الغريب أنني لا أرتاح له كثيرًا.. أقبل أن يكون هذا الكلام في سياق قصة حيث الخيال هو اسم اللعبة، لكني أرفض رفضًا تامًا أن يكون على شكل معلومات. بعبارة أخرى، يسرني أن أكتب قصة مسلية عن مصاصي الدماء، لكني أرفض أن أكتب مقالاً عن مصاصي الدماء وطريقة قتلهم وكيف تميزهم عن سواهم.

دعنا من الكونتيسة التي تلتهم الآذان إذن، ولنتكلم في شيء آخر اليوم على الأقل.. فقط تعال وأعد لنا كوبًا من الشاي الثقيل ليحلو الكلام.. ألا يوجد عندكم أي نوع من البسكويت أو الكيك هنا ؟.. لا ؟.. يا للبخل...

اليوم سوف أعود بك إلى أوائل السبعينات من القرن الماضي.. على الأرجح كنت أنت في علم الغيب وقتها، أما أنا فكنت طفلاً في المدرسة الابتدائية

نهمًا للمعرفة بطريقة غير عادية.. نباتًا ينمو متأهبًا لأن يمتص كل قطرة يقابلها حتى لو كانت قطرة عرق. في هذه الفترة تشكل وعيي للأبد، وقرأت أول ما قرأت من مجلات بعينين متسعتين.. طبعًا لم أكن أستوعب معظم ما أطالعه لكنني لا أنساه أبدًا.

كانت تلك الفترة أعوامًا صاخبة بحق.. الشباب ثائر في العالم كله لأنه يشعر أن الكبار أوغاد منافقون متحجرون.. حرب فيتنام مشتعلة وقد بدأت تكلف أمريكا أرواحًا ومالاً أكثر من اللازم، وبدأ الناس في أمريكا يتساءلون: لماذا يقوم البيض الذين سرقوا أرض الحمر بإرسال السود ليقتلوا الصفر في الجانب الآخر من العالم ؟.. الشباب الأمريكي يهجر بيته ليلبس القمصان المشجرة ويمشي حافيًا ويتعاطى عقار الهلوسة ويعيش في الشوارع.. البيتلز عادوا من التبت وقد اعتنقوا البوذية.. كل شيء مشجر وزاهي الألوان أو ما يطلقون عليه (سايكدليك). وفي هذا الوقت بالذات – عام **1969** – أقام الهيبيز مهرجانهم الأضخم والأشهر (وود ستوك) في واشنطن.. لابد أنك سمعت أغنية (حرية) التي كانت زهرة ذلك المهرجان..

أعتقد أن هذه الفترة أثرت بشدة في كاتبنا النشيط (محمود قاسم)، وله رواية جميلة اسمها (شارلستون) عن تلك الحقبة تصفها بأمانة ودقة.

في هذه الفترة بالذات عرفت الساحة الثقافية نوعًا فريدًا من المخلوقات،

هم الكتاب والصحفيون والرسامون الذين يسافرون للخارج عشر مرات في العام، على حساب الجريدة التي يعملون فيها طبعًا.

كان من السهل أن تعرف هؤلاء المثقفين من شكلهم، بالشارب طراز جنكيز خان المتدلي على جانبي الفم، والشعر الذي يتدلى على الكتفين، والسجائر الأجنبية، والمعطف الذي يحرص المثقف على أن يلتقط به بعض الصور لنفسه في ميدان ترافلجار أو سان ماركو أو أي ميدان يغطيه الحمام..

بعد هذا يكتب فلا يحاول استيعاب قيم العمل والنظام والعلم في الحضارة الغربية.. فقط هناك دائمًا تلك القصة الحمضانة عن الكاميرا التي نسيها في الأتوبيس، وعاد ليجدها حيث هي بعد عشرة أيام.. أو عن قشر اللب الذي ألقاه في الشارع – هل هناك لب في باريس ؟ – ثم نظر خلفه فوجد رجل الشرطة يمشي خلفه من أول الشارع وقد جمعه كله في قبضته، ثم قال له: دونت دو ذات (هل رجال شرطة باريس يتفاهمون بالإنجليزية ؟).

الآن جاء دور المظاهر السطحية للحضارة الأوروبية.. المظاهر التي تبهره جدًا ويوشك على البكاء تأثرًا وهو يحكيها لنا مع نغمة (أنا شفت وانتوا لأ).. الحرية الجنسية ومحلات البورنو وأنواع النبيذ والفكر الوجودي والملاهي الليلية، وما يحدث في الشوارع بينما المارة لا يتدخلون.. الخ.. طبعًا هذا الأخ لا يرى من الفكر الوجودي سوى فتاة تلبس شبشبًا تنفث سحابة

كثيفة من الدخان وهي تنظر للسماء، وأمامها كأس مترعة، ومستعدة أن تذهب مع أي واحد إلى أي مكان في أية لحظة.. لماذا ؟.. لأنها وجودية طبعًا يا أخي..

تقريبًا كان هذا ما يكتبه كل واحد منهم، ثم يكتب في انبهار عن فيلم إباحي جديد تراه لندن وباريس ليقول لنا إنه يناقش (أزمة العصر والإنسان).. دائمًا أزمة العصر والإنسان حتى أصبت بحساسية من هذه العبارة، وأرشحها لتكون من أنواع الأرتيكاريا المعروفة. لابد من الكلام عن حرب فيتنام كذلك ليبدو الأمر عميقًا. رأيت فيلمًا لبنانيًا تم تصويره في تلك الفترة، فلم أجد مشهدًا واحدًا أقبل أن يراني أحد وأنا أشاهده، لكن في منتصف الفيلم يظهر رجل عجوز يحمل كأسًا، ويقتاد البطلة إلى جدار علق عليه بعض صور حرب فيتنام ليقول لها في عمق:

-"حرب فيتنام.. يا سلام!!"

بهذه العبارة البلهاء صار الفيلم عميقًا وصار يناقش (أزمة العصر والإنسان).

في ذلك العصر اشتهر (كلود ليلوش) جدًا بفيلمه الأول (رجل وامرأة)، وهو فيلم لا بأس به وفيه مجموعة طريفة من التقنيات الجديدة، أضف لهذا اللحن الجبار الذي يعرفه الجميع، والذي لو استعملته لحنًا تصويريًا لزجاجة زيت تموين لصارت قطعة من الفن الرفيع. بعد هذا قدم ليلوش حشدًا من

الأفلام، حوّل فيها (رجل وامرأة) إلى جورب يقلبه بألف طريقة ممكنة ويحاول بيعه من جديد. في فيلم متأخر اسمه (رجل آخر.. امرأة أخرى) يقول في بدايته: "إن كل القصص قصة واحدة في النهاية!". علق الناقد الجميل (سامي السلاموني) على هذه العبارة قائلاً: "ليلوش يخبرنا منذ البداية أنه – عدم المؤاخذة – لا ينوي أن يقول شيئًا!". هكذا تبين لنا في وقت متأخر أن ليلوش بائع ترام يجيد الفرنسية لا أكثر. ثمة عبقري آخر هو جان لوك جودار الذي يستحيل فهم لقطة من أفلامه، وكان محبوبًا جدًا وقتها.

أفلام كثيرة جدًا عبارة عن كلام فارغ اشتهرت في تلك الفترة، ولعتها أقلام هؤلاء النقاد طويلي الشعر؛ منها الفيلم السخيف المتحذلق (التانجو الأخير في باريس). كان على بطلة الفيلم (ماريا شنايدر) أن تنتظر ثلاثين عامًا لتقول: " المخرج برتولوشي مريض نفسيًا ومنحرف.. لم يكن يريد سوى استغلالي جنسيًا بكل طريقة ممكنة". نفس الكلام ينطبق على السخف المسمى (سدوم) و(نقطة زبريسكي). طبعًا كانت هذه الأفلام من المقدسات في ذلك الوقت لأنها تعبر عن أزمة العصر والإنسان. لم يكن بوسعنا السفر لرؤيتها في الخارج، واليوم أرى هذه الأفلام عن طريق الكمبيوتر فيصيبني الذهول.. هل كان هناك وقتها من يحب هذا الهراء حقًا؟؟

كان هناك فيلم شهير لأندي وارهول – عبقري مجنون آخر – يصور

ناطحة السحاب (امباير ستيت) في لقطة ثابتة لمدة ست ساعات!. ولما تساءلت عن مبرر هذا الجنون، قالوا لي إن المخرج يرمز بهذا إلى (أزمة العصر والإنسان).

فيما بعد عرفت أن بعض هؤلاء السادة المثقفين كانوا يقومون بجولات مطولة في حانات باريس ولندن، ويكتسبون خبرة ممتازة في التمييز بين نبيذ (شيانتي) والنبيذ البورجوني ، والجولات في شارع (سان دنيس) في باريس.. ثم يجلسون بسرعة ليكتبوا أي شيء.

أحيانًا يضيعون وقتهم في نشاطات أخرى: هناك ناقدة سينمائية شهيرة كانت تكتب عن مهرجان كان كل سنة، ثم عرفت من زميل لها أنها كانت تقضي فترة المهرجان كلها في التسوق من شارع الشانزليزيه، ثم تهرع إلى كان قبل انتهاء المهرجان لتجمع النشرات الخاصة بالأفلام المعروضة من ستاندات الشركات ، تكتب منها في مصر تقريرها الذي سينشر في المجلة.. وكالعادة تشرح لنا كيف أن هذه الأفلام تناقش (أزمة العصر والإنسان).

تذكرت دعابة الأب المصري الذي أرسل ولده إلى فرنسا لدراسة الطب، ثم ذهب ليزوره بعد أعوام. راح الفتى الفخور يشرح لأبيه كل ركن في باريس.. هنا هو بار كذا.. هنا هو مرقص كذا.. هنا هو ملهى كذا.. في النهاية توقفا أمام بناية فاخرة عتيقة الشكل فسأل الأب ابنه عن اسمها. لم يعرف الفتى. اتجها

إلى شخص مار يسألانه عن هذه البناية فأخبرهما أنها كلية طب باريس!

الرسامون كذلك كانوا يذهبون هناك ليمرحوا، ثم يجلسون في مكاتبهم ليرسموا اسكتشات سريعة لعشاق جالسين في حدائق عامة وقد أحاط بهم الحمام، أو فتيات يجلسن بالميكروجيب حول موائد دائرية في مقاه مفتوحة، أو متسول يقلد شارلي شابلن. كان بوسعهم أن يرسموا هذا كله وهم في مكاتبهم في مصر بالطبع. لي صديق من الرسامين سيئي الحظ الذين لا يمكن أن ترسلهم المجلات التي يعملون فيها إلى أي مكان، ملأ لي وهو في بيته المتداعي بحي الحسين كراس رسم كاملاً مليئًا باسكتشات رائعة من ميادين روما وستوكهلم ومقاهي باريس.. وكان يتوقف أحيانًا ليأخذ رشفة من الشاي أو يسحب نفسًا من دخان المعسل.. وأحيانًا كان يقضم قضمة من ساندوتش طعمية.. لهذا امتلأت السكتشات ببقع الزيت.. طلب مني لو سألني أحد عن مصدر هذه البقع أن أقول إنها بقع مايونيز أسقطتها الساقية ماريان على اللوحات..

ثم حك رأسه مفكرًا وقال:

-"هناك فكرة أفضل.. قل إنها بقع وضعناها عمدًا على الرسوم لتعبر عن أزمة العصر والإنسان!"

نعم.. برغم أن الحياة تسوء وتزداد تعقيدًا فإن من حسن حظنا أن موضة (أزمة العصر والإنسان) هذه قد انتهت. صحيح أن النصب ما زال ممكنًا عن

طريق الإنترنت حيث يمكنك كتابة مقال عن أي شيء خلال ثلاث دقائق، فإن أحدًا لم يعد يجرؤ على استخدام مصطلح (أزمة العصر والإنسان) هذا بعد ما اعتصره الأقدمون كليمونة. دعك من أن كتاب ذلك الجيل قد شاخوا وأصيبوا بالنقرس والروماتزم وارتفاع ضغط الدم وضيق الشرايين التاجية، فلم يعد بوسعهم الكلام عن أية أزمة سوى الأزمة القلبية. فلتعد لنا كوبًا ثانيًا من الشاي الثقيل قبل أن نفتح موضوعًا آخر.



القصاصة ما زالت في جيبي

كنت قد كتبت بعض الأشياء التي يجب أن أقوم بها في تلك القصاصة الصغيرة من الورق المربع التي أدسها في جيبي كل صباح. وجه القصاصة مخصص للأعمال التي يجب القيام بها، وظهرها مخصص للأفكار التي تتوالد فجأة.. طبعًا كل هذا بخط لا يُقرأ.. لو مر يوم قد أقدر أنا نفسي على قراءة حرف..

لسبب ما نسيت القصاصة على المكتب، ولسبب ما جلست طبيبة امتياز على المكتب فوجدتها.. لم تعرف أنها تخصني فراحت تطالع المكتوب بشيء من الفكاهة:

-"خبز – الكهرباء – عباس أبو شقة – مرقة دجاج – تسلمَ المرآة!!!"

هنا بدا الرعب في عينيها وقذفت بالقصاصة.. تسلمَ المرآة!... من صاحب هذه الكلمات ؟.. هذا رجل أقل ما يقال عنه إنه من الطراز الذي (يتسلم المرآة).. رجل لا تتمنى أن تقابله في زقاق مظلم أبدًا..

طبعًا لم أخبرها باسم صاحب القصاصة وتظاهرت بأنني لم ألحظ الوقف أصلاً، وعندما غادرتْ الغرفة أمسكت بالقصاصة لأفهم أية امرأة علي أن أتسلمها... هنا وجدت أن العبارة هي (تسلمَ المرآة)!.. مرآة!... هذه همزة وليست علامة تمديد.. كانت مرآة الحمام قد تهشمت وأخذت الإطار لصانع المرايا وقد كان اليوم موعد التسلم. مشكلة هذه القصاصات التي تكتبها لنفسك هي أنها لا يجب أن تقع في يد غريب.. إنها فضائح مجسدة..

أعادتني هنا إلى قضية القصاصة وهي قضية معقدة فعلاً، سوف أشرحها لك لو جلست تشرب الشاي معي..

في أحد المنتديات سألتني قارئة ذكية عن كيفية الكتابة الغزيرة التي

أمارسها، مع كل هذه السلاسل المخصصة للشباب والتي تصدر في مواعيد محددة.. هل هناك إلهام يأتي حسب الطلب وفي وقت معين ؟..أم أن العملية تجارية تمامًا، وتعتمد على أن أجلس لأكتب أي شيء كلما حان الوقت؟.. وتساءلتْ في آخر تعليقها عما أسمته (تزمين الإبداع).. تعبير موفق بالتأكيد...

سؤال مهم ، ويدل على أنها لا تأخذ أي شيء ببساطة.. نحن ننتظر الرواية القادمة لعلاء الأسواني أو صنع الله إبراهيم أو إبراهيم عبد المجيد.. الخ.. فنعطي الكاتب وقته ليدرس ويجمع المعلومات ، ويكتب ويمزق ما كتبه ، ويشرب جالونات من القهوة.. ربما ننتظر عامًا أو خمسة أعوام. لا مشكلة. فليأخذ وقته..

لكنك ستصاب بدهشة بالغة لو قيل لك إن جمال الغيطاني مثلاً ملتزم برواية كل ستة أشهر.. عندها لن تبتلع الأمر تمامًا.. إن ستيفن كنج – في رأيي – من أغزر الكتاب العالميين إنتاجًا، لدرجة أن الناشر اضطر لأن يصدر بعض أعماله باسم مستعار هو (رتشارد باكمان) لأن السوق لا يتسع لكل كتابات هذا الشلال، وبرغم هذا لم يلتزم ستيفن كنج بموعد محدد لصدور أعماله..

أوضح نموذج لظاهرة الإنتاج في مواعيد محددة هذه هي أجاثا كريستي، التي كانت ملتزمة برواية كل عام.. على كل حال أجاثا لها خلطة تعرف أسرارها.. اللورد تاكري قتل في مكتبه ويصل بوارو ليستجوب الجميع، ثم

يكتشف أن الممرضة هي القاتلة.. يمكننا أن تجري تنويعات للأبد لدرجة أن بوارو نفسه صار القاتل ذات مرة.

ديكنز كان يكتب قصصه مسلسلة للصحف.. حلقة بحلقة.. كان يلعب نفس دور المؤلف الذي يكتب حلقة من المسلسل قبل التصوير بنصف ساعة وهو يشرب الشاي الكشري في البوفيه، وذات مرة وجدوا أن المساحة المخصصة لقصة (ديفيد كوبرفيلد) أكبر مما قدمه لهم، من ثم جلس في المطبعة بسرعة وكتب عشرين صفحة!.. نعم.. عشرين صفحة.. لكن نتيجة هذه الكتابة حسب الطلب هي (أوليفر تويست) و(ديفيد كوبرفيلد) و(أوقات عصيبة) و(توقعات عظمى) و.. و... لهذه الطريقة عيبها كذلك كما لاحظ سومرست موم في دراساته الروائية.. فلو كانت قصة ديكنز تحتاج فعلاً إلى العشرين صفحة تلك، لكان قد كتبها منذ البداية..

هناك مثال قوي آخر هو شكسبير ذاته.. كان يكتب بالطلب وحسب مواعيد عروض مسرح (جلوب)، ومن أجل أكل العيش فقط، وبرغم هذا إبداعاته تتحدث عن نفسها.. أي أن الرجل كان يكتشف أنه مفلس فيجلس ليكتب (هاملت).. ثم ينتهي المال فيجلس ليكتب (ماكبث).. وهكذا...

أعتقد أنه كوّن حاسة (الموهبة وقت الحاجة لها) التي سأتكلم عنها في هذا المقال، وبالطبع استعمالي لهذه الأسماء الكبيرة للتوضيح فقط، ولا يعني

أنني أعتبر نفسي مثلهم..

في البداية يكون المرء مزاجيًا جدًا.. يكتب عندما تنضج الأفكار في رأسه ويصير البديل عن الكتابة هو الكسرولة على الرأس وتعاطي البروزاك.. يكتب المرء كذلك لاستمتاعه الشخصي ولنفسه فقط. إما أن يظل كذلك للأبد ويصير أديبًا من الأدباء الذين يكتبون ثلاث أو أربع روايات في حياتهم، أو يصير من كتاب السلاسل والمقالات الدورية، حيث المطبعة تعوي كجهنم طيلة الوقت طالبة المزيد..

لو صارت الأخيرة، فإنه على الأرجح يتوصل إلى حل توافقي لابد أن جميع من يكتبون بانتظام وصلوا إليه، وهو الحل الذي يلجأ له المحترف وشبه المحترف: أن يصير إنجاز القصة خليطًا من الإلهام الفني والالتزام بخطة نشر..

لا يوجد لدى أحد زر يضغط عليه لكتابة قصة، ولو كان عنده هذا الزر لما صار أديبًا أصلاً بل هو عامل باليومية. لهذا يقوم المرء بتجميع كم هائل من الأفكار والمعالجات والخطط التي تخطر له في لحظات الراحة الذهنية في ملف كي يستعملها عندما يحين الوقت. كما قلت هذه عملية صعبة وتحتاج لبضعة أعوام حتى يعتادها الكاتب وتصير طبيعة لديه.

لقد اقترب موعد قصة مجلة الشباب، ولابد من تقديمها قبل يوم 10 في الشهر.. ما أفعله هو أن أنقب في ملف الكمبيوتر المدعو (أفكار) بحثًا عن فكرة تصلح.. هذا الملف بدوره تكون من مئات القصاصات التي أدون عليها كل شيء يخطر ببالي.. قابلت ذات مرة رجلاً وجد سيارة أجرة في ساعة الذروة، فجلس جواري في التاكسي مبللاً بالعرق، ينظر من النافذة في تشف ورضا عن الكون، ونشوة المختار الذي اختلف حظه عن التعساء الآخرين.. يهتف أحد المارة المنهكين بالسائق طالبًا الذهاب لشارع الجلاء، وهو بعيد جدًا عن مسارنا طبعًا، فيقول جاري في ضيق وتهكم:

- "جلاء إيه يا عم بس!!"

فجأة صار كل من يريد الذهاب لشارع الجلاء سخيفًا لحد لا يُصدَّق..

لقد شفيت الأمم المتقدمة من داء الذهاب لشارع الجلاء منذ زمن، وأنتم ما زلتم تريدون الذهاب له ؟.. لن نتقدم أبدًا. هنا أمد يدي في حذر إلى القصاصة في جيبي وأدوّن (الراكب – شارع الجلاء – سخف)... هذا كنز صغير وسوف أعود لأضيف هذه العبارة إلى ملف الأفكار عالمًا أنني سأستعملها ذات يوم... إنه شخصية جاهزة للاستعمال في قصة أو مقال.. لا أدري..

إن الحياة حبلى بالإلهام خاصة في مصر.. النماذج الغريبة تطفو على السطح وتثب في وجهك، ويتباين الأدباء في درجة حساسيتهم لالتقاط هذه

النماذج. هناك قصة رائعة ليوسف إدريس استوحاها من مراقبة طالبة تتسلل خلف بناية الكلية وتخرج سيجارة تدخنها في نهم، وهو المشهد الذي لابد أن كثيرين رأوه فلم يفكروا في شيء سوى أن البنات فاسدات الأخلاق. ثمة شخصية رائعة لتشيكوف استوحاها من مدير مكتب بريد يعرفه. وقد حدث أن ذهب لذلك المكتب مع الأديب الكبير (ماكسيم جوركي)، هنا لاحظ جوركي الشخصية وسأل تشيكوف: أليس هذا هو الذي استوحيت منه شخصية فلان؟

بدا الخجل على تشيكوف واحمر وجهه، كأن هناك من ضبطه متلبسًا بفعل فاضح!

ليس البحث دائمًا سهلاً لأنني أنسى أحيانًا معنى ما كتبت من رموز، أو لا أفهم ما راق لي.. على سبيل المثال، سأنقل لك هذه السطور من ملف الأفكار الخاص بي الذي تجاوزت صفحاته مائتي صفحة:

• فن تحويل الهراء إلى نقاط ملموسة.. كلام هلامي يصير له رأس وذيل.. يبدو الأمر عميقًا حقيقيًا..

• رائف ولوحة فتيات أفنيون.. أتيليه القاهرة. (طبعًا لا أفهم حرفًا من هذه العبارة)

• الحياة دائرة مفرغة من التجاهل المتبادل.. (وماذا بعد ؟.. ماذا أريد من هذه العبارة التي تتظاهر بالعمق ؟.. لا أعرف)

• غرفة الفندق نفسها هي المسخ!

• تعتقد أنه مادام لم يبلل فلتر السيجارة فقد قام بما يجب عليه ككائن بشري.. (استعملتها فعلاً في مقال).

• البريد الالكتروني للشيطان.

• لا يمكن أن يسمحوا بتعليقهم على المشانق.. (من هم ؟.. لا أفهم)

• حرب الكواكب.. أناكين. يا عم انا دماغي متكلفة.. (غالبًا سخرية من التعقيد الشديد لسلسلة حرب الكواكب).

• السائق يخالف كل قاعدة مرورية.. مقطورة منحنى.. رغبة في تدمير الركاب حتى ايقنت ان عيالي تيتموا.. أين الرادار.. لا تتفاءل بالشر.. نحن مستهترون.. ليس الطريق سهلًا... هل التقويل يسبب الحوادث ؟... تربية مرورية دينية (كتبت هذه الفكرة في مقال طويل فعلاً)

• الأذكياء الذين يصلون لنمطهم بسهولة.. الريفي الظريف.. (لا أفهم)

• هذا الألم الشديد في صدري.. هل هذا هو اليوم ؟؟؟

• الفتاة والبخور (أتمنى لو فهمت المقصود).

• الكلب مرتاب.. يعرف شيئًا (تبدو نواة دائمة لكل قصة رعب في التاريخ).

هكذا تتراكم الأفكار في الملف.. وعندما يقترب موعد القصة أنقب فيه عن فكرة تصلح.. فكرة خطرت لي اليوم أو منذ أعوام.. أكسوها لحمًا وجلدًا.. هذه طريقة قريبة جدًا من فكرة الإلهام..

أما ما أصنعه بهذه الأفكار فموضوع آخر، وهناك جانب كبير من التوفيق في هذا العمل. قد تحول فكرة باهتة تافهة لعمل جيد، وقد تجد فكرة رائعة لكنك تحولها لعمل سخيف ممل.. وقد تحول فكرة سخيفة باهتة لعمل أشد سخفًا وبهتانًا. على كل حال هناك علامات لا تدحض على أن القصة جيدة:

1- أنتظر موعد الكتابة الليلي في لهفة وأتمنى الخلاص من المضايقات اليومية لأتفرغ لها.

2- الشعور بأن القصة تكتب نفسها، أو أنني مجرد قلم في يد عملاقة ولا دور لي.

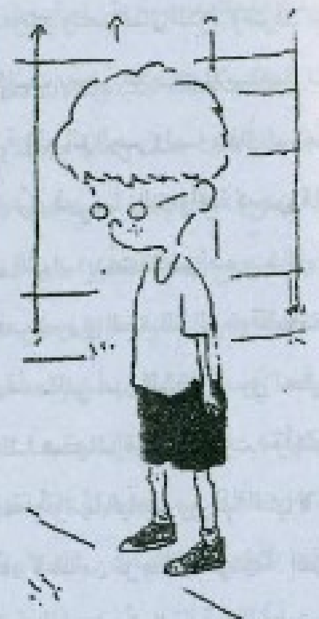
3- الشعور بكراهية لشخصية أو التعلق بشخصية.

لو لم تأت علامة من هذه العلامات، أدرك أن القصة ستكون متوسطة أو أقل من المتوسط ولا حول ولا قوة إلا بالله.. عندها إما أن أمسح كل شيء وأبدأ من جديد، أو أتركها كما هي آملاً أن يكون ذوق القارئ غير ذوقي، أو أن يكون

أكثر تسامحاً وتفهماً. دعك من أن كتابة قصة سيئة تعيدك للوضع الأمثل: أنت في القاع حيث لن تخسر شيئاً ولا تخشى شيئاً، ولابد أن تكون القصة القادمة أفضل ولو قليلاً، بينما القصص الجيدة تضع عليك آمالاً مرهقة.

إن الموضوع طويل ومعقد، لهذا أكتفي بأن أطلب منك ألا تندهش عندما اخرج ورقة مربعة صغيرة من جيبي وأدون عليها شيئاً، فإنا نسيتها في مكان ما فلا تحاول قراءتها من فضلك وأعدها لي!

المختار من المختار



هذه المرة أرجو أن تعد لي كوباً حقيقياً من الشاي بدلاً من هذا الماء الأصفر الساخن الذي تعده في كل مرة. الشاي الجيد في رأيي هو الذي تمسك بالكوب منه فلا ترى أصابعك من الجهة الأخرى.. ويجب أن تكون كميته قليلة جداً، فأنا غير راغب في الانتحار..

سوف أحكي لك اليوم قصة جميلة قرأتها قديماً في مجلة (المختار من الريدرز دايجست).. مجلة (المختار) كانت تصدر عن دار أخبار اليوم في مصر، وكانت مهمتها أن تقدم لنا وجهاً جميلاً للسياسة الأمريكية والحياة في

أمريكا.. مجلة لها نفس سحر مارلين مونرو ونفس مذاق الكولا وظُرف ميكي ماوس ودونالد دك، ولأسباب كهذه كانت بعض علامات الاستفهام تحوم حولها دائمًا. في ذلك الزمن كانت لفظة (العالم الحر) لها مذاق استعماري أمريكي خانق، وكان موقف أمريكا ملتبسًا. فهي ما زالت واعدة كمحررة العالم بعد الحرب العالمية الثانية، لكن بعض الأنياب بدأت تظهر مع مشاكل كوبا وقصة خليج الخنازير وغزو لبنان وسحب تمويل السد العالي ووقف تصدير القمح.. الخ.. ثم زاد الطين بلة مع قضية مصطفى أمين الشهيرة، وفي لحظة ما توقفت تلك المجلة لأعوام، ثم عادت لنا هذه المرة من بيروت.. وأشهد أن الصورة الأولى للمجلة بطباعتها الرخيصة وألوانها الباهتة وورقها الذي لا يصلح ورقًا للجرائد. كانت أروع وأكثر إمتاعًا.. دعك من ترجمتها الرشيقة. الترجمة اللبنانية تثير أعصابي غالبًا، خاصة عندما تتحول السويد بمعجزة ما إلى (أسوج)، والطماطم والخيار يصيران (بندورة) و(كبيس) بالترتيب، واللبان (علكة)، ويظهر ممثل اسمه (غريغوري بيك) وآخر اسمه (كلارك غابل)، دعك طبعًا من (البوظة) التي هي الآيس كريم بالترجمة اللبنانية، بينما عندنا تعني كارثة وليلة في التخشيبة.

أسمعك تطالبني بان أدخل في الموضوع.. طيب.. طيب.. يا أخي راع سني الذي يدق باب الخمسين في حماسة، وراع تصلب الشرايين. يبدو أن

الاستطراد علامة مهمة على تصلب شرايين المخ.. لا شك في هذا..

كانت هناك كتب ومقالات معينة تشد انتباهي جدًا في مجلة المختار هذه.. مثلاً كانت هناك رسالة جميلة يكتبها أب لابنه الصغير النائم اسمها (بابا ينسى)، وقد ظللت أبحث عنها طويلاً حتى وجدتها في أحد المنتديات الليبية. صحيح أنهم اختصروا منها كثيرًا جدًا لكنها ظلت قصة في الإبداع.

هناك قصة بالصور الفوتوغرافية على عدة صفحات.. المتكلمة واضح أنها طفلة تقول: "أحب القطط الصغيرة.. أحب الثلج.. أحب العصافير.. أحب الشيكولاته.. أحب لعب الكرة بعد المدرسة.. الخ.. الخ..". في نهاية القصة نرى وجه طفلة زنجية جميلة دامعة هي التي كانت تحكي لنا القصة، ومعها عبارتها الأخيرة : "أتساءل.. لماذا لا يحبني بعض الناس ؟".

أما القصة التي سأحكيها لك فهي تجربة حقيقية مرت بكاتب المقال الأمريكي في طفولته..

إننا نحمل في خلايانا الدروس التي تلقيناها في طفولتنا، ولا نستطيع منها فكاكًا. نحن سجناء بيئتنا وطريقة تربيتنا الأولى.

كان المؤلف في السابعة من عمره وكان يهيم غرامًا بمتجر المستر جونز الموجود على قارعة الطريق. السبب طبعًا هو أنه متجر لبيع الحلوى.. هناك عبر النافذة المطلة على الشارع كان يقف ليرمق العالم السحري بالداخل. قطع

الجاتوه المكسوة بالشيكولاته والكريم وقد غرست فيها أعلام صغيرة أو أعواد ثبتت عليها الفواكه المسكرة. التفاح المكسو بالسكر.. تماثيل مختلفة من الشيكولاته، وقلعة شيدت منها تقف فوق جبل من الكريمة. عشرات الأنواع من حلوى النعناع التي تذوب في الفم تاركًا نارًا لها نشوة..

لم يكن يملك قط المال اللازم لشراء ما يريد، فهو من أسرة فقيرة، وهو يعرف أن أسعار هذه الأنواع من الحلوى يفوق قدراته..

إلى أن جاء اليوم الذي ادخر فيه ما يكفي..

اقتحم المحل فدق الجرس الصغير المعلق بالباب يخبر مستر (جونز) أن هناك زبونًا. خرج العجوز الطيب الذي يضع عوينات تنزلق على قصبة أنفه، وتأمله وهو يجفف يده في منشفة، وسأله:

-"ماذا تريد أيها الرجل الصغير ؟"

اتجه المؤلف الصغير إلى قطع الجاتوه وأشار لها بثقة:

-"أريد خمس قطع من هذه.."

ابتسم العجوز ودس يده في قفازين وانتقى للفتى بعض القطع التي طلبها، وهو يتلقى التعليمات: "لا أريد التي عليها قشدة كثيرة.. لتكن الشيكولاته"

في النهاية أغلق العجوز علبة صغيرة ونظر للصبي متسائلاً، فأشار إلى التماثيل المصنوعة من الشيكولاته:

-"أريد هذا القط وهذا الحصان.. أريد هذا القصر الصغير.. هل هذه عربة ؟.. ضعها لي "

قال مستر (جونز) في شيء من الحذر:

-"هل معك نقود تكفي هذا كله ؟"

-"نعم.. نعم "

الآن انتقى بعض حلوى النعناع، وكان هناك الكثير من غزل البنات الذي ما زال ساخنًا فانتقى منه كيسين، واختار بعض الكعك..

في النهاية صارت هناك علبة كبيرة معها كيس عملاق امتلأ بالأحلام، وسأله مستر جونز:

-"هل هذا كل شيء ؟.. سأحسب.."

هنا مد المؤلف الصغير يده في جيبه وأخرج ماله.. أخرج قبضة من البلي الملون الذي يلعب به الأطفال ووضعه بحذر في يد العجوز، وقال في براءة:

-"هل هذا كاف ؟؟"

لا يذكر المؤلف التعبير الذي ارتسم على وجه مستر (جونز).. ما

يذكره هو أنه صمت قليلاً، ثم قال بصوت مبحوح وهو يأخذ البلي:

-"بل هو زائد قليلاً.. لك نقود باقية"

ثم دس بعض قطع العملة في قبضة الصبي، ومن دون كلمة حمل الصغير كنزه وغادر المتجر..

لقد نسي هذا الحادث تمامًا ومن الواضح أن أمه لم تكن فضولية، كما يبدو أنه لم يجرب ذلك مرة ثانية.. فيما بعد غادرت الأسرة المنطقة وانتقلت إلى نيويورك....

الآن صار كاتب المقال شابًا في بداية العمر، وقد تزوج فتاة رقيقة اتفق معها أن يكافحا ليشقا طريقهما.. كان كلاهما يعشق أسماك الزينة لذا اتفقا على افتتاح متجر لهذه الأسماك..

في اليوم الأول انتثرت الأحواض الجميلة في المكان، وقد ابتاعا بعض الأسماك غالية الثمن.. وكما هو متوقع لم يدخل المتجر أحد..

عند العصر فوجئ بطفل في الخامسة من عمره يقف خارج الواجهة وجواره طفلة في الثامنة. كانا يرمقان الأسماك في انبهار..

وفجأة انفتح الباب وتقدمت الطفلة وهي تتصرف كسيدة ناضجة تفهم العالم، أو كأنها أم الصبي.. وحيت المؤلف هو وزوجته وقالت:

-"أخي الصغير معجب بالأسماك لذا أريد أن أختار له بعضها.."

قال لها إن هذا بوسعها بالتأكيد، لكنه شعر بأن هناك شيئًا مألوفًا في هذا الموقف، متى مر به من قبل ؟.. لعله واهم ؟..

اتجهت الفتاة إلى حوض أسماك المقاتل السيامي وهي باهظة الثمن رائعة الجمال، واختارت اثنتين فأحضر المؤلف دلوًا صغيرًا والشبكة وبدأ ينقل ما تريد.. ثم اتجهت إلى حوض أسماك استوائية نادرة واختارت ثلاث سمكات.. وكانت تصغي لاختيارات أخيها الذي يهتم بالأسماك الكبيرة زاهية اللون طبعًا..

في النهاية امتلأ الدلو ووجد نفسه يقول لها:

-"أرجو أن تعودي للبيت سريعًا قبل أن ينفد ما في الماء من هواء، كما أرجو أن يكون ما معك من مال كافيًا فهذه ثروة صغيرة"

قالت الطفلة في ثقة:

-"لا تقلق.. فقط ضع لي هذه وهذه"

بدأ يجمع ثمن ما وضعه في الدلو، وذكر الرقم المخيف للطفلة، لكنها لم تبد مدركة لمعنى الرقم أصلاً... مدت يديها في جيبيها وأخرجت قبضتيها مليئتين بحلوى النعناع وبعثرتها على المنضدة أمامه وسألته في براءة:

-"هل هذا كاف ؟"

هنا شعر بالرجفة.. لقد تذكر كل شيء.. تذكر صبيًا في السابعة يجمع كل ما في محل المستر (جونز) من حلوى منذ خمسة وعشرين عامًا أو أكثر.. تذكر البلي.. ترى بم شعر المستر جونز وقتها ؟.. لن تسأل كيف تصرف فقد تصرف فعلاً... رباه!.. ما أثقل الميراث الذي تركته لي يا مستر جونز وما أقساه...!

كان مستر جونز قد وجد نفسه في موقف حساس، ولم يستطع أن يجازف ببراءة الصبي أو أن يشعره بالحرمان.. لم يتردد كثيرًا.. وبالمثل لم يتردد المؤلف..

قال بصوت مبحوح للطفلة وهو يجمع حلوى النعناع ويضعها في الدرج:

-"بل هو زائد قليلاً.. لك نقود باقية"

ودس في يدها الصغيرة بعض قطع العملة، فقالت في رضا:

-"شكرًا يا سيدي.. سأخبر كل صديقاتي عنك!"

وغادرت المحل مع أخيها.. هنا وثبت زوجته من حيث جلست تتابع هذا الموقف وصاحت في توحش:

-"هل تعرف ثمن السمك الذي أخذته هذه الطفلة ؟.. إنه يقترب من

خُمس رأس مالنا!"

قال لها وهو يرمق الصغيرين يهرعان تحت شمس الطريق:

-"أرجو أن تصمتي.. لقد كان هناك دين يثقل كاهلي على مدى خمسة وعشرين عامًا نحو عجوز يدعى مستر جونز، وقد سددته الآن!!"

انتهت القصة..

لو لم تجدها جميلة أو لم تشعر بقشعريرة وأنت تقرؤها، فالعيب يعود إلى تلخيصي لها. هذه المقالات لا تُلخص وإنما تُعاش.

الآن فكر في هذا جيدًا..

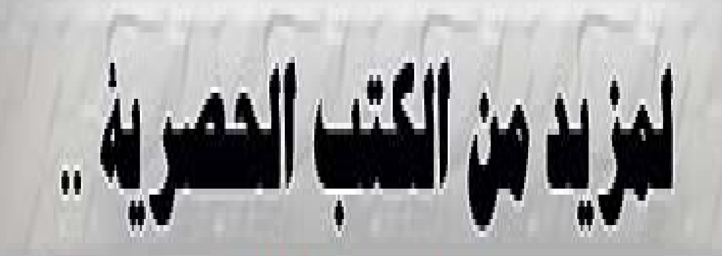
سوف تكتشف أن نسيجك الأخلاقي يتكون من عشرات بل مئات المواقف التي اجتزتها مع والديك أو معلميك، وهذه المواقف تركت لك في كل مرة دينًا يجب أن تفي به. كثيرًا ما ننسى هذا الدين.. ولا تحسب الأمر سهلاً.. عندما بكيت أمام أبي لأنني لا أذكر شيئًا من منهج الجغرافيا والتاريخ ليلة الامتحان، وضع يده على كتفي وجلس يراجع لي المنهج حتى ما بعد منتصف الليل.. عندما تكرر ذات الموقف مع ابني اعتبرته مستهترًا. المصري الذي استضافني أسبوعين كاملين في بيته في ذلك البلد العربي إلى أن وجدت شقة، وبرغم هذا عندما امتلكت شقة صار من الصعب أن أستضيف معي شخصًا

لا أعرفه. الأستاذ الذي أشرف على رسالتي العلمية الأولى، صادف الكثير من الأخطاء في المراجع فأصلحها ولم يعلق، بينما انفجرت أنا غيظًا عندما رأيت أخطاء المراجع في أول رسالة أشرف عليها في حياتي. لكنني أحاول ان أتصرف مثل الأستاذ الأول.. أحاول...

ميراث لا ينقطع.. وما ستفعله بمن هم أصغر منك سوف يكررونه مع من هم أصغر منهم عندما يكبرون.. بل ربما يكررونه معك أنت...

هل بدأت أتحذلق وأتفلسف ؟.. يبدو أن شايك هذا من نوع غير نقي.. لم أسمع عن شاي يلعب بالرءوس لكن هذه هي الحقيقة..

أقترح أن تعد لنا كوبًا آخر وتنسى الموضوع.. سأجد لك موضوعًا أفضل..





السلاموني يتكلم

نعم.. سوف أتكلم اليوم عن الناقد السينمائي الجميل سامي السلاموني (س.س)، الذي توفي في مثل هذا الشهر عام 1991. أنا لم أقابل (س.س) قط. لكنني تبادلت معه مراسلات عدة في خطابات مطولة كان يكتبها بخطه الأنيق ويرسلها مسجلة لعنواني في طنطا (وهو درس في التواضع لن أنساه أبدًا).

أما عن سبب عدم لقائي معه فهو سبب رومانسي جدًا يناسب فتى في العشرينات من عمره، ولا يريد أن يعرف أن كاتبه المفضل من لحم ودم وله ظل على الأرض.. كان بوسعي دائمًا أن أركب القطار إلى القاهرة، ثم أمشي لرقم 36 شارع شريف حيث نادي السينما.. لكنني لم أجد قط الشجاعة لعمل ذلك..

كنت أعتبر سامي السلاموني موجودًا للأبد، فهو كائن سينمائي لا يمرض ولا يموت، مثله مثل تلك الأطياف الشفافة على شرائط السليلويد.. ثم فتحت الصحف ذلك اليوم الحزين من شهر يوليو عام **1991** لأجد الأستاذ أحمد بهجت ينعي الفارس الذي رحل. عرفت أنني أخطأت التقدير وضيعت فرصتي الأخيرة للقاء هذا الرجل الذي تربيت على كل كلمة كتبها..

في آخر خطاب لي قال: "أحرضك على أن تحترف الكتابة.. لكني لست مسئولاً عن النتائج!". أنا نفذت هذا التحريض يا أستاذ سامي.. وها أنا أقدم لك هذا المقال فهل سيروق لك ؟

"الناقد السيئ ليس إلا مقدمًا للأفلام، بينما الناقد الجيد معلم ومفكر وفنان متخصص". هذه هي كلمات جون سيمون في كتابه (العقيدة السينمائية)، وقد ظللت أتذكر هذا التعريف طويلاً كلما تعلق الأمر بسامي السلاموني. إن كتاباته لم تكن نقدًا سينمائيًا فحسب، بل هي خليط من الأدب الساحر والفلسفة والفهم المتكامل للحياة. ما زلت أرى أنك تتعلم الكثير عن الأدب من

مقالات هيكل السياسية، ومقالات جلال أمين الاقتصادية، ومقالات سامي السلاموني السينمائية.

تخرج سامي السلاموني في المعهد العالي للسينما وحصل على دراسات عليا في الإخراج عام 1973، علاوة على ليسانس آداب قسم صحافة؛ أي أنه صحفي سينمائي أو سينمائي صحفي. بالإضافة لهذا كان نموذجًا للصعلوك البوهيمي الحقيقي الذي لا يعرف متى ولا كيف يأكل، ولا أين يبيت ليلته، وبالطبع هو لم يتزوج برغم حبه المجنون للأطفال. إن حكاياته طويلة مع الشقة الآيلة للسقوط التي كان يقيم فيها، وعندما وعدته الفنانة البريطانية فانيسا ردجريف أن تزوره عندما تأتي لمصر، كانت مشكلته هي أنه لا يعرف أين يضع هذه السيدة لو فعلتها وجاءت!

أخرج سامي السلاموني أفلامًا قصيرة؛ منها (الصباح) و(مدينة)، كما أنه ظهر ممثلاً في أفلام محدودة منها لقطة قصيرة في فيلم (الحريف). وقد قدم عددًا من البرامج التلفزيونية المهمة مع صديق عمره يوسف شريف رزق الله.

كان السلاموني في كتاباته النقدية يستعمل لغتين: اللغة الوقور الأكاديمية المخيفة التي استعملها مثلاً في مقاله عن فيلم (المدرعة بوتمكين) في مجلة الهلال، وعن (كاجيموشا) في مجلة الفنون، ولغة بسيطة ساخرة غير متحذلقة مثل التي كان يستعملها في مقالاته في مجلتي الكواكب والإذاعة

والتلفزيون، لكنه اختار اللغة الثانية دون تردد.

كان عدو التحذلق والتظاهر بالعبقرية. عندما شاهد فيلم (الجلد) للإيطالية ليليانا كافاني، قرأ في مقدمته كلمات للمخرجة تقول: "الجلد خارطة جغرافية للعالم، سواء كان جلد إنسان أم جلد كلب". قال بطريقة تلقائية: "أقسم أنني لم أفهم حرفاً من هذه العبارة، فهي ضخمة جداً وغامضة جداً بحيث لابد أن تكون عظيمة وعميقة، وبحيث صار من لا يفهمها حماراً. وكثير من الأفلام يلجأ لهذه الحيلة كي يبدو عميقاً، بينما أعظم الأشياء كان دائماً أبسطها".

في شبابه كان متمرداً عصبياً أو كما يصف نفسه (ثائر الشعر والأفكار)، ولم يكن يتنازل أو يتساهل.. وكان أستاذه العظيم أحمد كامل مرسي يقول له تلك العبارة التي كان السلاموني يعشقها: طظ في حضرتك. مع الوقت ازداد تسامحاً وقبولاً للآخرين.. مثلاً بدأ يدرك أن حسن الإمام مخرج متقدم جداً تقنياً برغم أنه أكثر ناقد هاجمه في حياته. لكنه ظل يمقت الادعاء والتصنع: "آخر فيلم لجان لوك جودار تشعر بأن الرجل صنعه لنفسه وأصدقائه من العباقرة فقط وجودار يقول في المؤتمر الصحفي: ليست لدي مخيلة.. لقد تخيل كارتر والخميني كثيراً، بينما فلليني وروسلليني نظرا للأشياء الحبلى بالمعاني. هذا كلام كبير جداً بس أنا مش فاهمه!".

سامي السلاموني كان طفلاً مندهشاً يعشق السينما بجنون، ولا يفهم

قواعد تلك اللعبة المسماة بالحياة ولم يبرع فيها قط. كتب كثيراً جداً لكنه مع الوقت بدأ يعتقد أن الكتابة لا تغير شيئاً وأنه أصغر من أن يخلق السينما التي يحلم بها. لعل السبب الأهم أن هذا صاحب أعوام الانفتاح الأولى، وقد رصد بحساسية تغيرات المجتمع المصري العجيبة.. رأى الجمهور الذي بدأ يسيطر على السينما في ذلك الوقت، فشلت أفلام عظيمة مثل (روكي) و(جوليا) و(امرأة غير متزوجة)، وكتب يقول:

-"المأساة أن المشاهد المصري لم تعد تعنيه أية جوائز في العالم ما لم تحقق له الأفلام مواصفاته هو الخاصة في (السلطنة).. مسألة مثل التوظيف الدرامي للإضاءة التي نثرثر بها نحن النقاد، تبدو مضحكة جداً بالنسبة لجمهور اعتاد نور الكباريه الساطع". في ذلك الوقت قتل بلطجي عجوز الشاب (عمرو عز العرب) حفيد جمال عبد الناصر في مشاجرة بسبب خروج السيارة من الجراج. المثير هو أن العجوز –وهو رجل أعمال كذلك– كان يحمل سكيناً في سيارته أغمدها في بطن الشاب. رأى السلاموني في هذا الحادث ما هو أكبر.. رأى عصراً يذبح عصراً آخر. لقد صار هؤلاء في كل مكان "لهم فتحة صدر الطرزانات، ولهم نفس الملامح ويستمعون لنفس الطرب وفي عيونهم صفاقة من شبع بعد جوع.."

هكذا ومثل كل هؤلاء الذين يحملون قلب طفل، تحولت الإحباطات

والدهشة إلى جلطات تسد الشرايين التاجية، وكان قلبه هو الذي قضى عليه.

هؤلاء الأطفال الكبار لا يموتون إلا عن طريق العضو الأكثر حساسية في أجسادهم: القلب..

بالنسبة للممثلين:

كان السلاموني يؤمن بأهمية الممثلين القصوى، فلم يستطع أن ينظر لهم تلك النظرة المتعالية التي نظرها لهم هتشكوك (قطيع الماشية)، أو يوسف شاهين الذي استخدمهم كشاحنات تنقل أفكاره. يوسف شاهين اختار لبطولة فيلم (اليوم السادس) محسنة توفيق ثم فردوس عبد الحميد ثم سعاد حسني ثم داليدا.. يتساءل السلاموني: كيف يصلح لسعاد حسني ومحسنة توفيق ما يصلح لداليدا ؟.. هذا يدل على أن شاهين يعتبر الممثلين مجرد قطع شطرنج ولا فارق بين ممثل وآخر.

ذات مرة احتدت الفنانة شهيرة على جمهور المسرح الذي قاطعها، فشتمتهم وانسحبت. خرجت الأقلام الحادة تمزقها تمزيقًا، لكن سامي السلاموني قال: من حق أصغر كومبارس أن يصغي له الناس ويحترموه، لكن هذا الجمهور المتوحش الذي يعتقد أنه اشترى كل شيء بفلوسه يستحق ما فعلته شهيرة. كان سامي السلاموني من النقاد القليلين الذين جرءوا على نقد الجمهور نفسه، فهناك أفلام عجيبة فعلاً، لكن الجمهور جعلها تنجح مما

يعني أن الجمهور نفسه ليس على ما يرام تمامًا.

بالنسبة للمخرجين:

لم يتحفظ في إبداء إعجابه بالمخرجين الشباب الراغبين في عمل شيء مختلف، ومنهم عاطف الطيب ومنير راضي ومحمد خان، لكنه ظل على احترامه للرواد. بالنسبة ليوسف شاهين كان يعتبره مخرجًا عبقريًا بحق، لكن يجب أن يبتعد عن السيناريو نهائيًا، لأن ما يقدمه يبدو مخطريًا غريبًا مترجمًا إلى العربية. على يوسف شاهين أن يقدم لنا بديلاً لحسن الصيفي، فإذا كان هذا هو البديل فإن حسن الصيفي يربح بالتأكيد. كانت بينه وبين حسام الدين مصطفى حرب ورق لكنه وقف معه في معركة (درب الهوى) الشهيرة، ورأى أن حسام الدين مصطفى مخرج محترم برغم أسلوب المراهقة أحيانًا في الإفراط في زوايا الكاميرا الغريبة واستعمال الزووم. صلاح أبو سيف هو الأستاذ برغم إيمانه العجيب بأنه لا يوجد نقاد في مصر. سمير سيف واضح ومحدد.. إنه يؤمن أن سينما الأكشن الأمريكية هي السينما الحقيقية، ومهمة الفيلم هي الإمتاع دون أن نحمله أية أعباء أخرى.. إنه صادق وينفذ ما يؤمن به بشكل محترم.

الصهيونية:

لم يخلط السلاموني قط بين اليهودية والصهيونية، وكان أول من حذر

مبكرًا من تسلل الإسرائيليين إلى التلفزيون المصري، مثلما ظهر مناحم جولان صاحب شركة كونان في برنامج زووم الذي تقدمه سلمى الشماع. واعترف بأنه تعلم الكثير عن سينما اليهود من كتابات أحمد رأفت بهجت، التي علمته معنى أن يكون اسم البطلة سارة أو هانا والبطل روبين أو ديفيد. ينقل لنا ما قاله شارلي شابلن اليهودي: لو كان ينبغي أن نقيم وطنًا ليهود العالم في فلسطين، فعلينا أن ننقل كل كاثوليكيي العالم إلى فلسطين!.. على الأمم المتحدة ألا تسمح بإقامة دول عنصرية لأقليات. ولأسباب كهذه لم يستطع قط أن يبتلع العبقري وودي آلين الذي يقحم يهوديته بدون مناسبة في كل أفلامه.

الرقابة:

كانت له صدامات كثيرة مع الرقيبة الحديدية نعيمة حمدي التي قالت في حوار لها إنها مع التطبيع قلبًا وقالبًا، وقالت في حوار آخر إن ثورة يوليو انتزعت ثروات علية القوم. لكنه برغم كل شيء لم يستطع أن يرفض الرقابة بقلب مستريح كدأب المثقفين، وذلك عندما استدعاه مدير الرقابة سامي الزقزوق لعرض خاص لفيلم رائع هو (القمر) تحفة برتولوشي. الفيلم ساحر الجمال لكنه يحكي عن علاقة عاطفية بين أم وابنها!.. بعد ما رأى الفيلم شعر بأنه عاجز فعلاً عن اتهام الرقابة بضيق الأفق. هناك مشاهد لا

يمكن أن نسمح للمشاهد بأن يراها. "إن المتفرج يعامل بتقاليد رقابية صارمة طيلة العام، ثم تأتي في المهرجانات لتفاجئه بلقطات تذهب عقله دون مراعاة للظروف التربوية والاجتماعية لهذا المشاهد". وعندما رأى الفيلم الاسباني (المراهقات) قال: الفيلم ينتهي بنصيحة بلهاء للبنات ألا يفعلن هذا، بعد ما علمهن لمدة 90 دقيقة كيف يفعلن هذا!". يطالب بأن تتساهل الرقابة مع الأفلام المحترمة المميزة خاصة السياسية منها. أما حذف اللقطات الفاحشة فمسألة يمكن أن يفهمها.

المعارك:

معارك سامي السلاموني الصحفية تستحق كتابًا كاملاً، خاصة معركته مع مخرج إيراني غامض كاد يصبح ظاهرة سينمائية لفترة، هو (فريد فتح الله منوجهري) الذي قدم فيلمين في غاية الرداءة لكنهما نالا تسهيلات تصوير وإنتاج غير عادية في مصر. بالطبع اتهمه المخرج الإيراني بأنه شيوعي، واتهمه بأنه يشاهد الأفلام وهو نائم.. رد السلاموني بأن منوجهري يخرج الأفلام وهو نائم. هناك معارك كثيرة مع حسام الدين مصطفى، وإن اعترف له بأنه متحضر.. "لم يرسل بلطجية لضربي أو يجعل راقصة تحدد لي موعدًا للقائها كما فعل مخرجون آخرون!". كانت هناك معارك عنيفة مع غرفة صناعة السينما التي تبعث للخارج بمجموعة معينة من النقاد بينما تتجاهل

السلاموني ورفاقه تمامًا.

وفي سبتمبر 1981 وجد نفسه ضمن المبعدين في مذبحة سبتمبر الشهيرة. بالطبع كان الكثيرون قد تطوعوا في تقاريرهم السرية باتهامه بالشيوعية، وهي التهمة الجاهزة ضد أي متمرد مختلف يقول كلامًا لا يفهمونه.

تراثه:

ترك السلاموني الكثير من المقالات المتناثرة التي تشكل مرجعًا مهمًا لحقبة سينمائية كاملة، وأعتقد بلا فخر أن عندي أكمل مجموعة منها؛ بعضها من مجلة الإذاعة والتلفزيون وبعضها من مجلة الكواكب أو الفنون أو الهلال.. وجدت أن الأستاذ (يعقوب وهبي) قام بجمع مجموعة الأفلام العربية في أربعة مجلدات ممتازة صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، وكان رئيس التحرير هو أحمد الحضري. لكن لم يقم أحد على قدر علمي بجمع ما كتبه السلاموني عن السينما الغربية، وهو تراث ثمين جدًا بدوره، فماذا كتب بقلمه الساحر عن (إي تي) و(حرب الكواكب) و(الفك المفترس).. الخ.. ؟

هذا هو العرض الذي أقدمه لأية جهة ترغب في إصدار هذا الكتاب المهم. صدقوني إن س.س يستحق هذا وأكثر...

إذا.. و بلد العميان

H. G. WELLS
The Country of the Blind and Other Selected Stories

إذا استطعت أن تحتفظ بعقلك
بينما كل من حولك قد فقدوا عقولهم..
ويلومونك على ذلك..
إذا استطعت أن تثق بنفسك بينما الناس تشك فيك
وبرغم هذا تسمح لهم بأن يشكّوا..

إذا استطعت الانتظار فلا تتعب

فإذا ما خدعك الآخرون لا تلجأ للكذب..

إذا كرهك الناس فلم تدع الكراهية تتغلب عليك..

وبرغم هذا لا تبدو راضيًا عن نفسك ، أو تتكلم بحكمة أكثر من اللازم..

إذا استطعت التعامل مع الجماهير، وبرغم هذا تحتفظ بفضائلك..

وإذا مشيت مع الملوك وبرغم هذا لا تفقد فهمك للناس..

إذا لم يستطع خصومك ولا أصدقاؤك أن يؤذوك..

إذا كنت تهتم بالناس جميعًا، لكن لا تهتم بأحد أكثر من اللازم..

فلك الأرض وكل ما فيها..

وما هو أهم.. ستكون رجلاً يا بني!

كل من درس الشعر الإنجليزي يومًا يعرف هذه القصيدة (بالطبع هذا مقطع منها)، ولربما هو يكرهها لدرجة الجنون من كثرة تكرارها. قصيدة (إذا) للأديب البريطاني الشهير (رديارد كبلنج).. كبلنج الذي كتب (كتاب الأدغال) الشهير، والذي نعرفه بمقولة (الشرق شرق والغرب غرب ولا يمكن أن يلتقيا). إنه نبي الإمبراطورية البريطانية وبوقها.. شاعر المستعمرات..

مستر جون بول شخصيًا..

برغم هذا تظل القصيدة من أجمل ما قرأت. المشكلة أنها تضع شروطًا عسيرة جدًا لتكون رجلاً حقيقيًا.. أعتقد أن من يحقق شروط كيبلنج المعقدة يستحق أن يكون بطلاً من أبطال الملاحم وليس مجرد رجل.

عندما أقرأ هذه القصيدة أتذكر على الفور قصة قصيرة رائعة لكاتب بريطاني آخر؛ هو رائد الخيال العلمي (هـ. ج. ويلز).. القصة بدورها من تلك القصص اللعينة التي تطارد دارسي اللغة الإنجليزية في كل مكان، وقد تأكدت من كتاب قديم في مكتبتي أنها كانت مقررة على أبي في المدرسة..

لو لم تكن قد قرأت (بلد العميان) فإنني أرجو أن تفسح لي صدرك قليلاً..

كتبت هذه القصة عام **1904**، وتحكي عن مجموعة من المهاجرين من بيرو فروا من طغيان الإسبان، ثم حدثت انهيارات صخرية في جبال الإنديز فعزلت هؤلاء القوم في واد غامض..

انتشر بينهم نوع غامض من التهاب العيون أصابهم جميعًا بالعمى، وقد فسروا ذلك بانتشار الخطايا بينهم.

هكذا لم يزر أحد هؤلاء القوم ولم يغادروا واديهم قط، لكنهم ورّثوا

أبناءهم العمى جيلاً بعد جيل..

هنا يظهر بطل قصتنا..(نيونز)..

إنه مستكشف وخبير في تسلق الجبال، تسلق جبال الانديز مع مجموعة من البريطانيين، وفي الليل انزلقت قدمه فسقط من أعلى.. سقط مسافة شاسعة بحيث لم يعودوا يرون الوادي الذي سقط فيه، ولم يعرفوا أنه وادي العميان الأسطوري.

لكن الرجل لم يمت.. لقد سقط فوق وسادة ثلجية حفظت حياته.

وعندما بدأ المشي على قدمين متألمتين، رأى البيوت التي تملأ الوادي. لاحظ أن ألوانها فاقعة متعددة بشكل غريب، ولم تكن لها نوافذ.. هنا خطر له أن من بنى هذه البيوت أعمى كخفاش.

راح يصرخ وينادي الناس، لكنهم لم ينظروا نحوه.. هنا تأكد من أنهم عميان فعلاً.. إذن هذا هو بلد العميان الذي كان يسمع عنه، وتذكر المقولة الشهيرة:

-"في بلد العميان يصير الأعور ملكاً"

وهو ما يشبه قولنا (أعرج في حارة الكسحين). راح يشرح لهم من أين جاء.. جاء من بوجاتا حيث يبصر الناس.. هنا ظهرت مشكلة. ما معنى

(يبصر) ؟

راحوا يتحسسون وجهه ويغرسون أصابعهم في عينه.. بدت لهم عضواً غريباً جداً. ولما تعثر أثناء المشي قدروا أنه ليس على ما يرام.. حواسه ضعيفة ويقول أشياء غريبة.

يأخذونه لكبيرهم.. هنا يدرك أنهم يعيشون حياتهم في ظلام دامس، وبالتالي هو أكثر شخص ضعيف في هذا المجتمع. لقد مر على العميان خمسة عشر جيلاً، وبالتالي صار عالمنا هو الأقرب إلى الأساطير.

عرف فلسفتهم العجيبة.. هناك ملائكة تسمعها لكن لا تقدر على لمسها (يتكلمون عن الطيور طبعاً) والزمن يتكون من جزئين: بارد ودافئ (المعادل الحسي لليل والنهار).. ينام المرء في الدافئ ويعمل في البارد.

لم يكن لدى (نيونز) شك في أنه بلغ المكان الذي سيكون فيه ملكاً.. سيسود هؤلاء القوم بسهولة تامة.

لكن الأمر ظل صعباً.. إنهم يعرفون كل شيء بآذانهم.. يعرفون متى مشى على العشب أو الصخور. كانوا كذلك يستعملون أنوفهم ببراعة تامة.

راح يحكي لهم عن جمال الجبال والغروب والشمس.. هم يصفون له باسمين ولا يصدقون حرفاً. قرر أن يريهم أهمية البصر.. رأى المدعو بدرو قادماً

من بعيد فقال لهم:

-"بدرو سيكون هنا حالاً.. أنتم لا تسمعونه ولا تشمون رائحته لكنني أراه"

بدا عليهم الشك وراحوا ينتظرون. هنا – لسبب ما – قرر بدرو أن يغير مساره ويبتعد!. راح يحكي لهم ما يحدث أمام المنازل، لكنهم طلبوا منه أن يحكي لهم ما يحدث بداخلها.. ألست تزعم أن البصر مهم؟

حاول الهرب لكنهم لحقوا به بطريقة العميان المخيفة.. كانوا يصغون ويتشممون الهواء ويخلقون دائرة من حوله. لو ضرب عددًا منهم لاعترفوا بقوته، لكن لابد أن ينام بعد هذا، وعندها سوف.....!

هكذا بعد الفرار ليوم كامل في البرد والجوع وجد نفسه يعود لهم ويعتذر، وقال لهم:

-"أعترف بأنني غير ناضج.. لا يوجد شيء اسمه البصر.."

كانوا طيبي القلب وصفحوا عنه بسرعة، فقط قاموا بجلده ثم كلفوه ببعض الأعمال. وفي هذا الوقت بدأ يميل لفتاة وجدها جميلة، لكن العميان لم يكونوا يحبونها لأن وجهها حاد بلا منحنيات ناعمة وصوتها عال وأهدابها طويلة... أي إنها تخالف فكرتهم من الجمال.

لما طلب يدها لم يقبل أبوها لأنهم كانوا يعتبرونه أقل من مستوى البشر.. نوعًا من المجانيب.. لكن الفتاة كانت تميل لنيونز فعلاً. ووجد الأب نفسه في مشكلة، لذا طلب رأي الحكماء..

كان رأي الحكماء قاطعًا.. الفتى عنده شيئان غريبان منتفخان يسميهما (العينين). جفناه يتحركان وعليهما أهداب.. وهذا العضو المريض قد أتلف مخه. لابد من إزالة هذا العضو الغريب ليسترد الفتى عقله. بالتالي يمكنه أن يتزوج الفتاة.

بالطبع ملأ الفتى الدنيا صراخًا.. لن يضحي بعينيه بأي ثمن. بعد قليل ارتمت الفتاة على صدره وبكت وهمست: ليتك تقبل.. ليتك تقبل..!

هكذا صار العمى شرطًا ليرتفع المرء من مرتبة الانحطاط ليصير مواطنًا كاملاً. وقد قبل نيونز أخيرًا وبدأ آخر أيامه مع حاسة البصر..

خرج ليرى العالم للمرة الأخيرة، هنا رأى الفجر يغمر الوادي بلونه الساحر. أدرك أن حياته هنا لطخة آثمة.. الأنهار والغابات والأزرق في السماء والنجوم.. كيف يفقد هذا كله من أجل فتاة؟.. كيف ولماذا أقنعوه أن البصر شيء لا قيمة له برغم أن هذا خطأ؟

اتجه إلى حاجز الجبال حيث توجد مدخنة حجرية تتجه لأعلى..

وقرر أن يتسلق..

عندما غربت الشمس كان بعيدًا جدًا عن بلد العميان.. تزلقت كفاه وتمزقت ثيابه لكنه كان يبتسم.. رفع عينيه وراح يرمق النجوم.

انتهت قصة (بلد العميان).

بشكل ما أرى أنها ترتبط بقصيدة (إنا). هناك لحظة تدرك فيها أن الخطأ يسود وينتشر من حولك، وفي لحظة كهذه يصير القابض على المنطق والصواب كالقابض على الجمر. تشعر بالغربة والاختلاف وربما يعتبرونك مجنونًا أو على شيء من العته.. الأدهى أن لديك فضائل لكنهم لا يرون فيها أي قيمة. بعد قليل تأتي اللحظة التي تقرر فيها أن تتخلى عن عينيك لتصير كالآخرين. هذه اللحظة آتية ولا ريب فلا تشك فيها.. لكن لو كنت محظوظًا لرأيت الفجر وقتها وعرفت فداحة ما ستفقده..

أذكر عندما كنت في الوحدة الريفية، أن الرشوة والتقارير الطبية المزورة كانت أسلوب حياة، وكان كل العاملين مندهشين من ذلك الطبيب المخبول الذي يرفض أن يتقاضى مالاً مقابل أشياء كهذه.. كنت أتذكر قصيدة (إنا) وقصة (بلد العميان) وأقرر أن أصمد أكثر.. أصمد.. عالمًا أن أول رشوة أتقاضاها ستكون هي لحظة انتزاع عيني.. سوف تكون حياتي أسهل في بلد العميان بعد هذا وسأصير

مواطنًا محترمًا عندهم..

أفلتت بمعجزة من بلد العميان هنا، لأجد الأمر يتكرر.. لحسن الحظ مع أمور أقل فداحة من الرشوة، ولكن الهزيمة فيها تترك مذاقًا مريرًا في الفم برغم كل شيء..

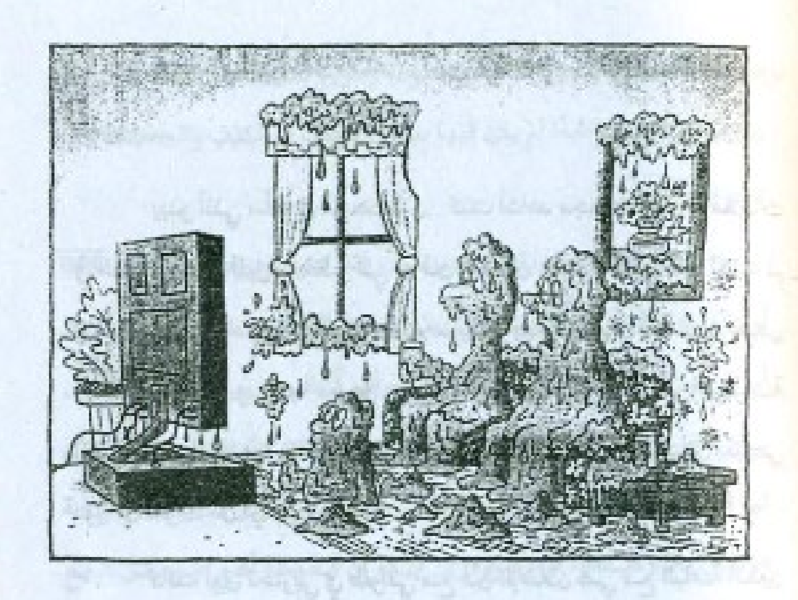
حتى على مستوى التفاهات يمكن أن تجد الأمور صعبة.. تفاهات مثل منع أطفالك من التهام أكياس البطاطس المقلية لأنها تحتوي مادة أكريلاميد المسرطنة.. هذا شيء فشلت فيه تمامًا لأن حركة المجتمع والدعاية والوجدان العام أقوى مني. تفاهات مثل التمسك بالمدرسة وعدم إعطائهم دروسًا خصوصية.. تكتشف مع الوقت أنه لا توجد مدرسة بل نادٍ كبير تدفع له اشتراكًا سنويًا، ولا يتم تدريس أي شيء فيه على الإطلاق. تكتشف أنك لن تستطيع أن تختلف عن باقي الآباء وأن أي درجة ينقصها الأولاد بعد هذا ستكون أنت المسئول عنها لأنك صدقت (كيبلنج).. وفي النهاية يجد المرء نفسه يقود سيارته في بلاهة متجهًا من مركز الدروس الخصوصية هنا إلى هناك.

أنت في الدائرة.. لا يمكنك أن تختلف...

وماذا عن الهاتف الجوال الذي كنت تعتبره طريقة عبقرية لامتصاص مال المصريين ؟.. هناك عظماء لم يقتنوا الجوال قط – من وزن د. جلال أمين

وصنع الله إبراهيم – فلماذا لا تقلدهم ؟، لكنك في النهاية اضطررت للتنازل.. في النهاية مضيت على خط السكة الحديد الذي رسمه المجتمع واقتنيت الجوال. تفاهات مثل كتابة (دكتور) قبل اسمك.. لم تكن تريد هذا، وأنت تعرف أن الوحيد المسموح له بكتابة (دكتور) قبل اسمه في أعلى المقال هو من حصل على دكتوراه في تخصص المقال. ثم هل قرأت من قبل عن (د. تشيكوف) أو (د. سومرست موم) ؟.. لكن الكل يفعل ذلك حتى يصير تنازلك عنه نوعًا من الإهانة الذاتية.. دعك من أنك حاصل على دكتوراه في الطب.. إذن فلنضع حرف (د) مثل الآخرين..

ينطبق الأمر على أمور لا حصر لها.. فقط ذكرت الأشياء القابلة للذكر. يبدو أن ضعف الذاكرة جعلني أنسى قصيدة (إنا) وقصة (بلد العميان). يقول الحديث الشريف: " لا يكن أحدكم إمعة، يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم" . وهذا بالتأكيد يلخص ببلاغة كل شيء قلته



إعلانات حتى الممات

الآن تعال نشرب الشاي وننعم بنعمة الصمت.. نحن نتكلم طيلة اليوم ولا نعطي أنفسنا فرصة واحدة للسماع أو تكوين آراء. عندما نصمت فلأننا نرتب ما سنقول في الجملة التالية.. إن مسرحية (الخراتيت) ليونسكو تلخص كل شيء، لكن ليس هذا موضوعنا على كل حال..

أحب الشاي الذي تعده.. رديء جداً لدرجة أنه جيد كما يقول الغربيون..

يبدو أنني سأخرق الصمت الآن.. كنت أشاهد مجموعة من الإعلانات في التلفزيون منذ قليل، فخطر لي أن فن الإعلان عندنا تطور جداً لكنه لم يتحرك خطوة واضحة في طريق فهم سيكولوجية المشتري نفسها.. بعض الإعلانات مستفز وبعضها مخجل، وبعضها يحاول مجاراة العصر إلى درجة أنك لا تفهم حرفاً مما يقال.. بعض الإعلانات جميل فعلاً لكن الإعلان ينتهي دون أن تعرف عن أي شيء يتحدث..

كانت أولى تجاربي في طفولتي مع فن الإعلان هي مع الباعة الذين ينادون على بضاعتهم بطريقة حرفية منغمة، فيصير من المستحيل أن تعي حرفاً مما يقولون. مثلاً كان هناك ذلك الرجل النحيل الأسمر الذي يقف جوار مدرستي وينادي بأعلى عقيرته: "شيها دوج دوج". أما بضاعته فشيء مغطى لا يمكن أن تعرف كنهه.. ربما هو ضفادع محمرة أو ثعابين مقلية أو ألغام دبابات من الحرب العالمية الثانية. ظل الفضول يغلبني خاصة أنني لا أجرؤ على الاقتراب لسؤاله عما يبيع، ولم أر في حياتي من يشتري منه قط، فيبدو أن كل الأطفال لا يعرفون ما يبيع.. في النهاية جرؤ أحدنا على أن يقترب ويكشف الغطاء.. عندها اكتشف أنه يبيع نوعاً من الحلوى.. وعبارة (شيها دوج دوج)

ليست سوى (فيها بندق) منغمة وممطوطة وملوية بحيث صار من المستحيل أن تعرف ما تقول.. وطبعاً لم يكن فيها بندق.. تعلمت أن الكذب والجعجعة جزء مهم من الدعاية..

بائع آخر كان يقف تحت شرفتنا كل عصر ويصرخ (هيااااااا أوووووووه!) كأنه طرزان ينادي حبيبته شيتا في الغابة. وقد سألت كل أفراد أسرتي عما يبيعه فلم يعرف أحد، واقترح أبي أن الرجل يبيع أكياس قمامة. بينما اقترحت أمي انه يبيع مشانق.. في ذات يوم سعيد دنت منه طفلة فكشف لها الغطاء عما يبيعه.. كان يبيع الزبادي لكن لا تسأل من فضلك عن علاقة الزبادي بالـ (هيااااااا أوووووووه!).. يبدو أن الصيحة أهم عنده من البيع ويعتبرها إهانة أن يصيح بصوت واضح النبرات: (زبادي)!

كان هذا درسي الأول عن الدعاية التي تجعلك لا تشتري شيئاً.

بدأت إعلانات التلفزيون تكتسب شعبية. في طفولتي كانت تعتبر من الفقرات المهمة في التلفزيون التي تجتمع لها الأسرة وتشعر بالدفء. هل قلت فقرة ؟.. طبعاً لأن إعلانات ذلك الزمن لم تكن تؤمن بالوقت. الإعلان يأخذ راحته تماماً كأنه فيلم قصير.. لت وعجن وقمة وذروة. كان هناك إعلان شهير عن شهادات الاستثمار (الفايدة متزايدة)، عرفت فيما بعد أنه محاولة الإغراء الأولى لثنائي (أحمد فؤاد نجم – الشيخ إمام) المتمرد كي يصير

برجوازيًا ويمشي مع التيار. يرى نجم أنه نجا وأنقذ الشيخ إمام بمعجزة من هذا الشرك. لا أذكر كل الإعلانات وقتها ولو تذكرتها فلن أكتبها هنا لأن معظم هذه السلع ما زال موجودًا. لكني مثلاً أحتفظ بمودة خاصة لصوت عبد العزيز محمود المليء بالشجن وهو يقول (أنا الهلامين.. جامد ومتين).

لا يذكر أحد متى ولا كيف عرفنا الشاب الظاهرة (طارق نور) الذي غير وجه الإعلان في مصر للأبد.. هذا الشاب كان له بالتأكيد ارتباط قوي بالبرنامج الأوروبي، وله فكر غربي كامل. قرر طارق نور أن ينتج إعلانات غربية بالكامل على أرض مصر، وبالاستعانة بالأجانب الموجودين في مصر.. هكذا ظهرت إعلانات مبهرة غريبة علينا، مثل إعلان مزيل العرق الشهير الذي يدور حول رجل إيطالي يشك في زوجته التي تدوي ضحكاتها من الطابق العلوي.. يهرع هناك مصممًا على قتلها فيكتشف أنها تمزح مع مزيل العرق!. ثم تفتق ذهن طارق نور عن أن الفتاة الغربية تبدو أجمل إذا لبست ملاية لف، وهكذا ولدت إعلانات مثل (واحد اتنين تلاتة.. حاجيب لك عربية). لا ننكر أنها كانت إعلانات ذكية.. أعتقد كذلك أن طارق نور هو أول من كرس مبدأ أن الفتاة المصرية السمراء ذات العينين السوداوين ليست جميلة ولا غزالاً ولا حاجة كما نقنع أنفسنا. بل هي (بيئة).. هناك فتاة واحدة جميلة هي الخواجاية ذات الشعر الأصفر والعينين الزرقاوين، ويا سلام لو كانت تتكلم

بعض العربية المكسرة. هذا قبل أن يسود مبدأ أن هناك طريقة حياة واحدة تستحق الكفاح من أجلها هي الحياة الأمريكية..

كانت هذه سنوات الانفتاح الأولى، وقد ظهر في الإعلانات ذلك الصوت الرفيع المتبهر دائمًا يعبر أصدق تعبير عن الجنون الاستهلاكي الذي دخلنا فيه، فلو كان للاستهلاك صوت لكان هذا صوته.. الحق نفسك.. وفر فلوسك.. انسف.. جدد.. اشتر الآن.. أما زالت معك نقود ؟.. يا لك من أحمق!. هذا بالطبع مع الجرأة اللغوية (الحب من أول أطمة).. للمرة الأولى تكتب (قضمة) بهذه الطريقة.

أحيانًا تنجح الإعلانات في خلق الخرافة.. مثلاً تلك الإعلانات عن السمن الصناعي المليء بالدهون المشبعة.. أولاً هي سلعة غير صحية بتاتًا وما تنجح فيه فعلاً هو ملء شرايينك التاجية بالكولستيرول.. ثانيًا مذاقها غير محبب على الإطلاق، لكن الإعلانات تصر على أن (الطعم بلدي وتحدي).. وتدور كل الإعلانات حول خبير الطبخ الذي يتناول ملعقة من السمن البلدي وهذا السمن، ويفشل في معرفة الفارق.. طبعًا هذا كذب ولا يمكن أن يخطئ معتوه في معرفة الفارق، لكن تكرار الدعاية على طريقة الخواجة (جوبلز) الذي يصر على أن تكذب بضخامة وتكرر كذبتك، هذا التكرار يجعل الكثيرين يعتقدون أن هذا صحيح أو فيه بصيص من الصحة..

يبلغ نفاق المعلنين ذروته عندما تذهب للخليج فتكتشف أن نفس إعلاناتنا بنفس الفتيات موجودة هناك، لكن مع وضع حجاب على رأس الفتيات!.. أي أن هناك صيغة لمخاطبة المصريين وصيغة لمخاطبة دول الخليج الأكثر تحفظًا، والتجارة شطارة في النهاية.

لكنك مع الوقت تكبر سنًا و تتعلم الحقيقة التاريخية التي تقضي بأنك أنك لن تحصل على قطع اللحم العملاقة الظاهرة على علبة الشواية التي اشتريتها، وبالتأكيد لن يبيعوا لك تلك الحسناء مع السيارة.. عندما تذهب لشركة الاتصالات لن يقابلك ذلك الفتى الباسم الذي لا يتعب أبدًا ولا يؤلمه فكاه من كثرة الضحك..

لكن هناك جيلاً من صغار السن ما زال يتعلم..

بعد عصر الحماسة وعصر الكذب جاء عصر جديد..

منذ زمن بعيد وقيمة الكفاح والعمل معنى مقدس لا يمكن المساس به، لكن إعلانات التلفزيون منذ أعوام اخترقت هذا التابو ببساطة.. المهندس عباس كافح في تعمير الصحراء عشرين سنة حتى صار شيخًا أصلع مهدمًا واشترى سيارة مرسيدس.. يا له من أحمق!.. بينما الولد الروش فلان أتصل برقم هاتفي من (0900) وعلى الفور حصل على نفس السيارة..!

هكذا في ثوان سخر الإعلان من قيم الكفاح ومن تعمير الصحراء ومن كل شيء.. لم تعد هناك قيمة في العالم إلا الروشنة والاتصالات..

بدأ الأمر على استحياء مع بداية الانفتاح في أوائل الثمانينات، عندما سمح التلفزيون لظاهرة شعبية بأن تظهر على شاشته.. هؤلاء ناس حملوا قلوبهم على أيديهم وودعوا أطفالهم من أجل القضية الوحيدة التي تهم ومن أجلها نضحي بكل مرتخص وغال: المياه المعدنية..

بعدها رأينا مع هشام سليم كيف أن شرائح البطاطس المقلية هي العامل الوحيد الذي يجمع طبقات الشعب وكل فئاته.. وظهر أحمد السقا الذي يضغط عليه الزبانية ويعذبونه وهو مربوط في قبو مخيف، لكنه مصر على الهتاف من أجل قضيته: المياه الغازية.. ويوشك أن يقول: والله لأموتن عليها..

المجال الثاني الذي خرقت فيه الإعلانات التابو هو مجال الدين....لم ترحم الإعلانات ظاهرة التدين هذه وقررت أنها مفيدة جدًا.. لقد انتهى عصر صوت محمد الطوخي الوقور المتهدج الذي يقول : وهبة الجزء عشرة جنيهات.. هناك إعلان جذاب يسمع فيه الشباب أغنية دينية من للوبايل فيتركون لعب الاسكواش – نشاط الشباب المصري المعتاد – ليلبوا النداء..

وهكذا تصل الرسالة: اشتروا خطوط الوبايل الجديدة واعطوني مالكم كي ننعم جميعًا بلذة الإيمان ومستقبل باهر في حب مصر..

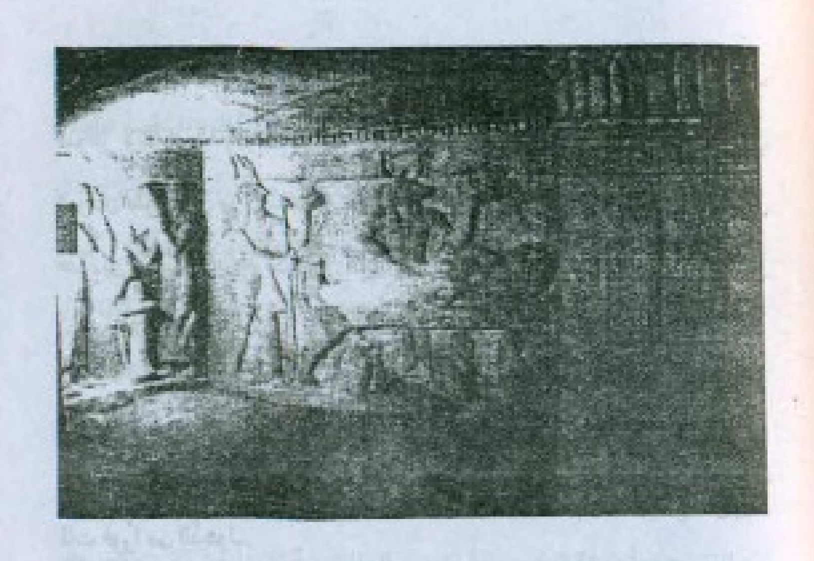
الصيحة الأحدث في الإعلانات هي الإعلان الذي لا علاقة له بشيء على الإطلاق.. غرابة لمجرد الغرابة.. اشتهرت شركة (بنيتون) للملابس الجاهزة بهذه الإعلانات العجيبة التي أثارت جدلاً، فتارة تقدم لك بألوان ممتازة رجلاً يلتهم سمك القرش جسده الممزق، وتارة تقدم محتضرًا يحيط به أفراد الأسرة الباكون، وتارة صورة رضيع ملوث بالدم.. مع عبارة صغيرة تقول: "الألوان المتحدة من بنيتون". لابد أن الموضوع خضع لدراسة نفسية مدققة لكن بصراحة لا أفهم.. معلوماتي أن الإعلان يجب أن يكون جميلاً ولا يكون ضربة بالمطرقة على الرأس لتتذكر للأبد..

مثلاً أنت تشاهد تلك الحملة الخاصة بـ (وديع) و(تهامي بيه) ولا ننكر أنها طريفة وأننا نشاهدها في استمتاع، لكن ماذا تريد قوله ؟.. هل أن الأفلام العربية أسوأ من الأجنبية ؟.. إذن لماذا تتهمون القناة التي أنتم فيها بتقديم أفلام رديئة ؟.. ولماذا التلميح الوقح في عبارة (أفلام عربي أم الأجنبي) الذي فهمه كل طفل ؟.. هناك إعلانات غريبة كذلك حول القناة التي (تتحدى الملل) ولا تفهم عن أي شيء تدور بالضبط. هل القناة هي ذلك الفتى السمج المترهل ؟.. إذن بئس الدعاية.. الغرض كما هو واضح هو التهريج لا أكثر، واستعراض للموديلات الفاتنات.. الإعلانات تخطت حاجز الجرأة بالفعل من ناحية الثياب والتلميحات.. تقول الخبيرة النفسية داليا الشيمي في موقعها

(عين على بكره): "هي كارثة بكل المقاييس فلو إعتدنا الأمور لهذه الدرجة فسوف نجد إعلانات قادمة خلال سنوات قليلة داخل حجرات النوم، دون الحاجة للإيحاءات أو الإشارات، على طراز أفلام عربي.. أم الأجنبي!!!! فكثير من الأشياء مثل الكرامة والشرف والفضيلة وغيرها تماماً مثل الثوب المصنوع من الصوف إن سُحبت منه (غرزة) تحول إلى خيوط لا تستر عورة ولا تصلح لتكون لباسًا يحمي الإنسان".

وكالعادة أنا لا أؤمن بوجود مخطط لهدم الشباب.. افتراض وجود مخطط يوحي بأن هناك عقلاً مدبرًا، لكن الإعلانات في مصر لا تتحرك وفق أي شيء سوى العشوائية كمستعمرة نمل مذعورة.. وغدًا سوف نرى التابو الجديد الذي سوف تخرقه الإعلانات لو كان لنا عمر..

هذا الشاي أسوأ من المعتاد.. ماذا ؟.. هل صدقت الإعلانات الكاذبة وابتعت هذا النوع بالذات ؟.. هلم اسكبه وأعد لنا كوبين آخرين..



لهواة الكاتاكوم فقط

أنذرك منذ البداية أن هذا المقال مخصص للمهتمين بالكاتاكوم وعشاقه، فإذا لم تكن من عشاق الكاتاكوم فإنك لن تحب هذا المقال!. لابد أن تشعر بالغيظ عندما تقرأ عن أو ترى آثار البلاد الأخرى، وتتذكر ما لدينا في مصر من آثار.. إن مصر تعج بالآثار بشكل لا يوصف، وقد صدق من قال إن التراب الذي نمشي عليه هو طبقة رقيقة فوق بقايا أمم لا حصر لها. لاحظ المغامر الإيطالي بلزوني

إن المومياوات كثيرة جدًا لدرجة أن النوبيين كانوا يستخدمونها كوقود رخيص متوافر لإشعال النار بدلاً من الخشب. صديق لي زار معبد الأكروبوليس في اليونان متوقعًا أن يرى معجزة. يقول إنه رأى عمودًا حجريًا مهشمًا يستند على عمودين، بينما السياح يشهقون انبهارًا.. شعر بخجل من نفسه لأنه لا يشعر بشيء، فراح يشهق مثلهم مرددًا:

-"واو!.. جريس!.. واو!"

وكان رأيه أنه لو رأى واحد من هؤلاء الكرنك أو معبد الدير البحري لمات فورًا من الذهول.

كل أنواع الآثار موجودة عندنا تقريبًا ولا يحضرني مثال في هذه اللحظة لبلد آخر يضم آثارًا فرعونية ويونانية وقبطية وإسلامية ورومانية بهذه الكثافة. حتى معطف روميل ومدرعات الفيلق الأفريقي المحترقة عندنا.. يا أخي حتى متحف محمد محمود خليل أقرب للوفر صغير. لماذا لا نرى هذه الأشياء ؟.. هناك خلل كامن فينا يتلخص في تعبير (الشيخ البعيد سره باتع)، لهذا ينفق المرء ثروة ليرى الأكروبوليس ولا يذهب إلى المتحف المصري في ميدان التحرير، دعك من أن السياحة الداخلية مكلفة فعلاً، حيث يمكنك أن ترى تركيا بتكلفة أقل من تكلفة زيارة الأقصر وأسوان. وهناك إهمال واضح في الإعلان عن هذه الكنوز وتنظيم الرحلات لها..

كنت قد قرأت كثيرًا عن الكاتاكوم Catacombs أو السراديب المعتمة التي يحفظون فيها عظام الموتى مع وضعها على أشكال زخرفية غالبًا، وهناك فيلم رعب شهير بهذا الاسم. لهذا كان أول مكان قررت أن أزوره في باريس هو الكاتاكوم الخاصة بها، ولم أعرف أن هناك كاتاكوم مهمًا جدًا في كوم الشقافة بالإسكندرية.. أي أن زيارته لن تكلفني سوى ثمن تذكرة القطار للإسكندرية والتاكسي إلى جنوب (حي مينا البصل).. هذه هي المشكلة كما قلت.

إن كاتوكوم باريس بالذات له ذكريات مهمة.. المقاومة الفرنسية كانت تتوارى في هذه الممرات المخيفة المعتمة، تحاول التقاط صوت الجنرال ديجول من المنفى عبر أجهزة الراديو، وفوق رجال المقاومة المتوارين كانت جنازير الدبابات الألمانية تمشي عبر مونبارناس فترج الجدران...

(بلاط المعجزات) مكان يتكرر في الأدب الفرنسي.. مكان هذا البلاط كان في الكاتاكوم، المكان الذي يحيا في الليل حيث اللصوص والقتلة والهاربون هم الملوك. كما تذكرك الكاتاكوم بأجواء فكتور هيجو في (البؤساء)... دعك من أن معظم القصص التي تظهر جماعة النورانية Illuminati تجعل اجتماعهم يتم في هذه الأقبية.

الوصول إلى الكاتاكوم كان شاقًا فعلاً لأن عددًا لا بأس به من الفرنسيين لا يعرفون بوجوده.. ربما لأن الاسم الذي يعرفونه هو l'Ossuaire

Municipal أي (العَظامة الأميرية). تعرف من النت أنها قرب منطقة اسمها دنفير روشيرو. هكذا تكون السياسة المثلى أن تذهب هناك بالمترو وتسأل أولاد الحلال.

اكتشفت أن هناك طابورًا طويلاً من السياح يقفون جميعًا بانتظار الدخول. يبدو أن قاعدة (الشيخ البعيد) تتكرر مع الفرنسيين كذلك، لأنهم لا يزورون هذا المكان بينما يزوره الأجانب، ولعل الفرنسيين يسافرون لمصر ليروا مقابر كوم الشقافة عندنا. إنهم يسمحون لمجموعات مكونة من 200 زائر بالنزول ، وهكذا تنتظر دورك وتتسلى بقراءة التحذيرات التي تنذر بخراب بيتك لو نزلت، إذا كنت مريض قلب أو رئة أو كنت عصبيًا أو جبانًا أو لك زوج خالة مصاب بالحصبة. الأمر بالتأكيد ليس مخيفاً إلى هذا الحد، لكنه مرهق بدنيًا.. دعك من شعور رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) الرهيب، حيث تشعر بأنك جائع للهواء وأنك مدفون كهذه الأجساد..

دعني أكلمك عن الكاتاكوم إلى أن يأتي دورنا..

عامة الكاتاكوم اختراع روماني.. لا أحد يعرف أصل الكلمة.. لكن الكلمة اتسعت لتشمل أية مقابر في ممرات تحت الأرض في أي مكان في العالم..

عندما تبحث في الإنترنت تجد أن هناك كاتاكوم في فيينا.. في تشيكوسلوفاكيا (هل وصلتك الرسالة التي تظهر كنيسة مشيدة بالعظام والرسالة

تزعم أنها عظام المسلمين ؟.. لم أجد أي دليل على ذلك على فكرة). في مصر كوم الشقافة.. في أوكرانيا مقابر أوديسا التي كانت تستعمل كالمغارة ليتوارى فيها رجال المقاومة أيام الحرب العالمية الثانية.. هناك واحد في سكوتلندا وأسبانيا.. بالطبع لابد من واحد في رومانيا بلد دراكيولا..

الطابور يتحرك.. تحرك معي...

لقد افتتحت مقابر باريس في نهاية القرن الثامن عشر. المشكلة التي واجهت الباريسيين هي أن المقابر صارت كثيرة جدًا داخل المدينة، ومع الوقت لم يعد يقدر على الدفن قرب الكنائس سوى الأثرياء. أما الفقراء فكانوا يلقون في حفرة كما يحدث في المقابر الجماعية..

الآن بدأت الجثث تتحلل، وناتج تحللها كان يتسرب إلى الأرض حيث المياه الجوفية.. آسف لأنني أثير اشمئزازك لكن النتيجة هي أن باريس صارت تشرب ناتج تحلل الموتى. وكانوا يخرجون العظام بعد فترة كافية ليضعوها في (عظَامة) لكن هذا لم يكن كافيًا..

هنا خطرت لرئيس الشرطة فكرة أن يتم نقل الموتى إلى أنفاق المناجم خارج المدينة. وهكذا تم اختيار هذا المكان وبدأ نقل العظام هناك.

لابد أنه كان مشهدًا دراميًا مخيفًا مهيبًا عندما كانت عربة الموتى المغطاة بالأسود تتحرك في الظلام، بينما يحيط بها القساوسة الذين ينشدون

أحيانًا جنائزية. وهذا الموكب يتكرر يوميًا لعدة أعوام. هناك ينزل العمال بالعظام إلى تلك الآبار العميقة ويرصونها في اشكال شبه هندسية. يقال إن هناك ستة ملايين جثة تحت باريس في هذه الأنفاق..

الآن نحن عند الباب بعد انتظار طال ساعة ونصفاً..

هذا الترقب يوتر أعصابي فعلاً.. الطقوس التي تمهد للحدث توحي بالتوجس..

نبدأ النزول.. هذه درجات حجرية متعبة جدًا جدًا.. تشعر بشعور الصخرة التي تسقط في بئر عميقة بلا قرار.. المفترض أنك الآن صرت على عمق عشرين مترًا تحت الأرض لكنك تشعر بأنك توشك على الخروج في الصين..

الآن تبدأ المشي وسط ممرات شبه مظلمة. كشافات خافتة على الجانبين وسقف منخفض تتساقط منه قطرات ماء، وبوابات حديدية موصدة على الجانبين يستحيل أن ترى ما خلفها.. هذه تقود لأجزاء أخرى من الشبكة وقد أغلقتها البلدية لأن السياح يمشون من هنا ويضلون طريقهم.. ممنوع استخدام الفلاش في التصوير، لكنك تكتشف أن الجميع يستخدمون الفلاش.. هكذا تفعل مثلهم.. تلتقط بعض الصور لهذا الظلام وتأمل أن تراها فيما بعد على مهل، لتعرف ما كان يكمن في الظلام بالضبط.

هناك رسوم تحمل طابع القرن الثامن عشر على الجدران تحكي قصة

إنشاء هذه الأنفاق. الرسوم نفسها مخيفة..

لا صوت سوى صوت خافت للمياه تتدفق فوق رأسك.. أين الآخرون ؟.. الحقيقة أنك وحدك تمامًا ولا تعرف متى حدث هذا..

بعد قليل تجد نفسك أمام هذه اللافتة المخيفة التي تقول:

"Arrête, c'est ici l'empire de la Mort"

تحاول تذكر دروس الفرنسية ومدام سلوى و(علي وأمينة) من أيام الثانوي حتى تفهم هذه العبارة.. "توقف!.. تلك هي مملكة الموت".. لها نفس مذاق عبارة (أيها الخطاة اتركوا وراءكم أي أمل) على باب جحيم دانتي..

والآن تعبر البوابة لتجد نفسك في نفق صنعت جدرانه من عظام الموتى..

عظام.. عظام.. عظام.. حسناوات. رجال أقوياء.. فلاسفة.. جنود.. شيوخ.. أطفال.. كلهم سواء وكلهم يضحكون تلك الضحكة الصفراء الكريهة.. أشكال زخرفية لا بأس بها صنعها المجنون الذي قام برص تلك العظام كأنه طفل يرص مكعبات ملونة..

نعم.. لابد أن تفكر في احتمال أن ينقطع التيار الكهربي.. سوف تموت ذعرًا وأنت في هذه الأنفاق لا ترى شيئًا. هناك حادث مروع وقع لمدرسة أطفال عندنا في مصر، عندما كان دخول الهرم الأكبر متاحًا للجميع.. الأطفال الذين في سن التاسعة كانوا في هذه الأنفاق المخيفة داخل الهرم عندما انقطع التيار

الكهربي.. سادت حالة من الهلع وداسوا بعضهم واختنق البعض، وكانت مأساة..

يمكن أن يتكرر هذا السيناريو هنا..

الاحتمال الثاني خيالي لكنه رهيب.. أن تصحو هذه العظام فجأة!.. لا يوجد كاتب قصص رعب يحترم نفسه لا يتخيل هذا المشهد.. تكرني أن أكتب قصة تدور في هذا المكان لكن ليس الآن..

لقد مرت ساعة تقريبًا ونحن نمشي في هذه الممرات.. مشينا ثلاثة كيلومترات تقريبًا حسب ما يقول الدليل..

عظام.. عظام.. عظام...

كل عظمة من هذه تمثل حياة كاملة.. حياة حسبت أن السماء والأرض والبحار لها.. لكن هذه الخواطر مكررة على كل حال، وتشعر فيها افتعالاً.. أنت ترغم نفسك على أن تفكر بهذه الطريقة. تذكرت د. لويس عوض عندما وقف على ظهر السفينة يرمق ميناء الاسكندرية يبتعد، وراح يقول لنفسه: "وداعًا يا وطني يا مهد الطفولة ومنبع الذكريات.. الخ".. ثم فطن فجأة إلى أنه لا يشعر بشيء على الإطلاق وأنه يمارس حالة تقمص أرغم نفسه عليها..

بصراحة العاطفة المسيطرة علي هي أنني أرغب في الخروج بأسرع وقت

ممكن..

وفي النهاية ترى العبارة الجميلة (خروج).. فتهرع إلى الدرج. هنا تكتشف حقيقة مرعبة هي أن الدرج كان صعبًا عسيرًا عند النزول.. أما في الصعود فهو مستحيل!!

"نهار أبوكم اسود!"

نحو مائتي درجة صاعدة بذات الطريقة اللولبية القاتلة.. قدماك واهنتان والجاذبية تشدك بعنف وصدرك يضيق.. الفاجأة الأسوأ هي أن الأمر يشبه البئر فعلاً.. يعني لا يمكن الجلوس على الأرض لالتقاط الأنفاس.. أريد أن أموت لكن لا توجد مساحة تسمح لك بالموت.. هنا فقط تدرك معنى التحذيرات الكثيرة التي قرأتها لمرضى القلب.. لا أحد يغادر هذه الأنفاق.. لا أحد.. لا شك في أن هذه العظام التي رأيتها هي عظام السياح الحمقى الذين سبقوك...

لا تعرف كيف تمر هذه اللحظات ولا كيف صعدت.. لكنك فجأة ترى نور النهار وتدرك أنك ما زلت حيًا.. هذا الشارع الواسع هو حي مونبارناس.... لقد عدنا لعالم الأحياء.....

لقد زرنا الكاتاكوم معًا... أرجو أن تكون قد أحببت هذه الزيارة..

ما بعد الثورة

نتكلم الآن عن كاتاكوم كوم الشقافة التي لم أرها بعد..

معظم مقابر العصر الروماني في الاسكندريه موجودة في الحفانه الغربيه ومقبره (كوم الشقافه) تقع جنوب (حي منيا البصل). المعلومات على شبكة الإنترنت تقول إنها نموذج مثير على اختلاط الفنين الفرعوني والروماني. وقد عثر عليها بالصدفة عام 1900. لا يوجد ما يدل على ثقافة مسيحية فيها، بل من الجلي أنها كانت مقابر وثنية منذ أنشئت حتى توقف استعمالها في القرن الرابع الميلادي..

الدرجات تهبط بك إلى عمق عشرة أمتار!.. لكن عند الصعود راعى الرومان – أولاد الحلال – أن الصاعد يكون مرهقًا استنفد ما لديه من طاقة، لذا جعلوا المنحدر شبه أفقي..

يبدو أنني سأزور هذه المقبرة بالتأكيد.. ومن يدري ؟.. ربما أكتب تجربتي معها هنا، وربما أصحبك معي.. فقط لو تأكدت من أنك تحب الكاتاكوم فعلاً !.



فواتير وحلبسة وميكروباث

مصر تشهد الكثير من التغيرات في هذه الأيام، ومعظمها تغيرات أسطورية يصعب تصديقها. لو عدت بذاكرتك إلى ثلاثة أشهر مضت لتتذكر ما كان يقال وما كنا نحلم به، لفهمت كم أن الوضع الراهن غريب. لو تخيلت منذ ثلاثة أشهر أن مبارك وولديه يمثلون للمحاكمة وكذلك العادلي وصفوت الشريف وكل لجنة السياسات تقريبًا، لاتهمك الناس بالهلوسة. ولو تخيلت صفحة واحدة مما صار يكتب في الصحف الحكومية أو يقال في وسائل الإعلام، لبدا لك أننا نعيش فصول أحد أفلام الخيال العلمي.

ثلاثة أشهر فقط حدث فيها الكثير، وتم تفكيك جهاز الدولة بالكامل.. لا يوجد مسمار واحد في ذات موضعه اليوم.. لكننا ننتظر في لهفة

اللحظة التي يتم فيها تجميع الجهاز من جديد ليبدأ العمل.. تنتظر أن يعود قلب الدولة للخفقان من جديد، وأن تنهض مصر الجديدة التي استردت عافيتها.. هل تشعر بأن هذه اللحظة تأتي ببطء شديد ؟..

إن ثلاثة أشهر زمن تافه في حياة الشعوب. عندما تقرأ تاريخ الثورات تكتشف أن المسافات بين فصول قصة الثورة قد تستغرق أعوامًا.. فقط عندما تبتعد عن اللوحة قليلاً، تتلاشى المسافات الزمنية وتشعر بأن التغيرات كانت خاطفة كالبرق.

عندما تقوم الثورات يتكلم الخبراء عن المنتمي واللا منتمي والمتسلل.. يتكلمون عن الثورة والثورة المضادة. يتكلمون عن فلول النظام القديم.. الخ.. أما أنا فسوف أكلمك عن العشب... نعم.. العشب الصغير الذي كان موجودًا قبل الثورة وسيظل موجودًا بعدها.

هناك في ذلك الشارع المظلم ترى عربة (يسري)..

معالم العربة تشي بمهمتها.. الرجل يبيع الحلبسة، والحلبسة إن كنت لا تعرف هي ذلك المشروب الحارق الحريف للدغو (حمص الشام).. حلبسة ممتازة. عندما تقصده قل له إنك من طرفي، واطلب منه أن يضع لك كل شيء على الكوب. لو وجد فأرًا أو فردة حذاء سوف يضيف لك بعضه بينما جهاز الراديو الصغير المعلق بالحبال إلى العربة لا يكف عن الغناء بصوت أم

كلثوم.. وخير ظروف لسماع صوت أم كلثوم هي من مذياع رديء كما تعلم، حيث الضوضاء الاستاتيكية تدخل كل شيء.. عندها تشعر أن الصوت قادم من عالم آخر..

يمكنك إذا اشمأززت من الأكواب أن تحصل على الحلبسة في كيس بلاستيكي طويل معه ملعقة، ولكن كن حذرًا لأن تناول الحلبسة وقتها لا يقل خطورة عن التعامل مع زجاجة مولوتوف..

(يسري) هناك في كل ليلة حتى الصباح.. بقعة من الضوء الخافت والبخار زكي الرائحة وصوت (الست) طيلة الليل، وفي الصباح يرحل إلى ذلك المكان المجهول الذي يأتي منه باعة الحلبسة. وأعتقد أن مكسب الرجل في أكثر الليالي رواجًا لن يتجاوز عشرين جنيهًا..

(يسري) هناك في كل ليلة..

سمع أن هناك ثورة وأن الشباب يحتل ميدان التحرير، وأن الأمن مسعور والداخلية تطلق الرصاص على المتظاهرين، لكنه ظل واقفًا..

لن يحدث فارق معه.. ربما أمسك الشيوعيون بالحكم.. ربما سيطر الأخوان على السلطة. ربما نجح مبارك في الاحتفاظ بكرسيه.. لا يهتم كثيرًا بهذه التفاصيل.. إنه بائع حلبسة، فما الذي يمكن أن يصير له بائع حلبسة ؟ لا يوجد وضع أقل أو أسوأ..

إنه لا يخشى تغير الأنظمة، ولا يخشى إفلاس البنوك، ولا تهمه البورصة لأنه لم يسمع عنها أصلاً..

بعد أيام معدودات جاء من يصرخ أن الداخلية تلاشت تمامًا.. ذابت، وفي تلك الليلة بالذات عرف أنه لم تعد هناك شرطة.. سادت الإشاعة مدينة طنطا أن هناك ميكروباص محملاً بالبلطجية المدججين بالأسلحة الآلية قادمًا من المحلة الكبرى – ثلث ساعة – ومع الوقت صار الميكروباص سبعة ميكروباصات. طريقة البلطجية بسيطة هي إغلاق الشارع وإطلاق الرصاص في الهواء وتهديد سكان الشارع كي يدفعوا ما معهم من مال مقابل حياتهم، وهكذا ولدت اللجان الشعبية، وسرعان ما امتلأت شوارع طنطا بالشباب الذين تسلح كل واحد منهم بما يقدر عليه، واشتعلت الإطارات عند التقاطعات ووضعت متاريس تعطل اندفاع السيارات. ظل أهل طنطا ساهرين متوترين يراقبون كل سيارة في رعب.. ولا شك أن بعض قصص سوء الفهم المؤسفة وقعت لأن انفلات الأعصاب قادر على كل شيء.

وسط هذا كله ظل (يسري) ساهرًا.. لم يلحظ أي شيء مقلق سوى أن معدلات بيع الحلبسة قد ازدادت.. الشباب الساهر في اللجان الشعبية يحب الحلبسة كثيرًا. أما هو فلا خوف عليه.. من المجنون الذي يهاجم بائع حلبسة أو يحاول أن يسلبه ماله ؟..

كلما رأيته واقفًا في الظلام بقعة نور وحيدة لا تخشى، تذكرت الراعي وبونا... الراعي أدخل زوجته الكوخ وكذا أولاده ووضع خرافه في الحظيرة وكوّم الشوفان والشعير.. ثم قال: الآن فلتزأر العاصفة.. بينما يقول بونا إنه ليست لديه زوجة ولا أولاد ولا كوخ ولا شوفان ولا شعير... إذن فلتزأر العاصفة.! فلتزأر العاصفة!!

تمر الأيام.. يسمع يسري أن الثورة نجحت..

ثم يأتي اليوم الذي يقف فيه ليلاً كعادته يصغي لأم كلثوم، وهنا يدنو منه هذان العاشقان. الفتاة متأنقة بتلك الطريقة التي توحي بأن هذا خطيبها.. يبتاع الفتى لها كوبًا من الحلبسة، وعلى سبيل الرجولة يتأكد من أن كوبه هو الوحيد الذي يحوي الشطة.. ينصرفان وهما يتناجيان.. يبدو أن الغد كله لهما وأنهما سعيدان حقًا.. صحيح أن الشوارع لم تصر آمنة تمامًا لكن ليس كما كانت منذ شهرين..

لاحظ يسري أن هناك من جمع القمامة في هذه البقعة تمامًا، ولاحظ أن هناك من لون الرصيف باللون الأحمر والأسود والأبيض، ولاحظ أن هناك بعض إعلانات كانت معلقة عن الحزب الوطني تم تمزيقها بعنف وغل..

هو لا يعرف معنى الحزب الوطني ولا يعرف القصة كلها. لا يهتم

بلعبة السياسة كلها ما لم يصدر قانون بمنع الحلبسة.. فقط هو يعرف أن الشباب قاموا بعمل كبير جداً ومتفائلون جداً، وهذا يسره بالتأكيد.

هذا عن يسري.. أما عن شلبي فموضوع آخر...

شلبي الصغير ذو التسعة أعوام هو وأخوه ذو الثلاثة أعوام. الأب بواب إحدى العمارات في الشارع وهو رجل مكافح نشط.

شلبي الصغير تربى في الشارع.. يقضي في الشارع ست عشرة ساعة يوميًا. لهذا هو مشاكس تتراقص على ملامحه ضحكة شيطان صغير.

شلبي يلبس بيجامة (جيل) صغير تبرع بها أحد السكان.. وكما لك أن تتخيل هو اليوم يعيش أروع ساعات حياته. هناك ثورة.. لذا لم يعد يذهب للمدرسة وإجازة نصف العام تستطيل بلا توقف، وهناك زحام عند المحافظة كله ناس يصرخون.. وهناك قنابل غاز وطلقات رصاص وكل ما من شأنه ان يجعل الحياة رائعة. أما موضوع اللجان الشعبية فقد بلغ قمة الإثارة..

هو ذا يقف حاملاً عصا مكنسة حتى ساعة متأخرة من الليل ويدق الأرض بها بلا توقف، وأخوه الصغير يفعل ذات الشيء بعصا أصغر حجمًا.. يقفان وسط رجال وشباب كبار السن يملئون الشارع ليلاً.. هناك إطارات مشتعلة ولم يعد أحد ينام...

دنوت منه وسألته مداعبًا عن عدد البلطجية الذين قتلهم، فقال في أسى وخجل إنه لم يقتل أحدًا بعد..

كان هذا في الواحدة بعد منتصف الليل. لا أعرف ما حدث ولا متى أدركت أمه – زوجة البواب – أن بنطاله متسخ، فكان ما فعلته ببساطة هو أن نزعت بنطاله وجذبته من يده لتغير له في الغرفة تحت السلم. هكذا وقف هذا المناضل الثوري عاري النصف السفلي يدق بالعصا على الأرض ويصيح مصدرًا تعليماته لأخيه ذي الثلاث سنوات:

-"وله.. أي ميكروبات يعدي وانا مش موجود تكثره على طول!"

يريد الاطمئنان إلى أن أمن الشارع لن يتهاوى بمجرد اختفائه. ولفظة (ميكروبات) هنا تنتهي بحرف هو مزيج من الثاء والصاد.. لابد أن هناك أناسًا كثيرين وجدوا أنفسهم في الثورة وآلمهم أنها انتهت، لكن لن أجد مثالاً أصدق من شلبي الصغير الذي وجد نفسه في الثورة بالمعنى الحرفي لها.. ولا شك أن يوم عودته للمدرسة كان أسوأ يوم في حياته.

نترك شلبي ونتكلم عن المحمل المتحمس....

في تلك الأيام تلاشت الدولة تمامًا.. لم تعد هناك شرطة.. لا مصارف.. لا مصالح حكومية... لا شيء.. والسبب هو أن النظام يعاقب الشعب الذي ثار

ضده.. أنتم غير راضين بحكمي.. إذن جربوا الحياة من دون دولة. لا توجد دولة.. هناك خطر أن يأتي يوم لا تجد فيه طعامًا ولا ماء ولا كهرباء، وفي الأسبوع الأول للثورة انقطعت اتصالات الهاتف المحمول وخدمة الإنترنت، توطئة لأن تتوقف القطارات كذلك..

وسط هذا كله، كنت أرى هذا الشاب المتحمس الذي يحمل دفترًا ومجموعة من الإيصالات ويدور على البيوت. لا يحتاج لأن يضع بطاقة كي تعرف أنه محصل.. محصل كهرباء أو ماء أو غاز طبيعي..

تشتعل الشوارع وتسمع عن حريق في شارع كذا، وأن المتظاهرين يحرقون بناية كذا، وأن دبابات الجيش تتحرك في المنطقة الفلانية.. الشوارع خالية من الناس، لكن الأخ المتحمس يمشي وحده في الشارع بحثًا عن عنوان آخر، لا يخاف ولا يجري ولا يهمد..

من يصدر له التعليمات ؟.. من يدفع له راتبه ؟.. لو كان محصلاً فلأية جهة يسلم الأموال التي يحصلها ؟.. ومن يدفع له إذا كانت جيوب الناس خاوية أصلاً ؟

كنت أشعر بالنحس فعلاً.. من دون دولة يمكنك أن تسطو على من تريد، ويمكنك أن تمشي بسيارتك عكس الإتجاه في أي شارع، ويمكنك أن

تتجاهل إشارات المرور تمامًا، ويمكنك أن تتناسى سداد فاتورة الهاتف.. حتى دفاتر مخالفات المرور أحرقها المتظاهرون.. لكن يشاء حظي العاثر أن الموظف الوحيد الباقي على حاله وحماسه في مصر كلها هو محصل، وهذا المحصل يعمل في شارعنا!

أدركت أن هذا الرجل أكبر من الواقع ذاته. إنه بطل من الأساطير الإغريقية.. الكاتب المصري الجالس القرفصاء الذي يمثل البيروقراطية المصرية العتيدة. إنه آلة بدأت العمل وانكسر الزر الذي يوقفها فلن تتوقف أبدًا.. سوف يحصّل إلى أن يموت وليس لديه خيار آخر..

انطلقت أركض هاربًا منه، بينما هو يناديني في إلحاح.. يثب فوق الحجارة والمجاري التي طفحت والرصيف الهشم:

-"ما اسمك يا أستاذ ؟.. لابد أن عندي فاتورة لك!.. انتظر يا أستاذ!!"



بعد أربعة أشهر

ما زال المرء يجد صعوبة في تصديق أن ما حدث في 25 يناير قد حدث فعلاً. لا أنكر أن القلق يلتهم تفكيري، والاطمئنان ما زال بعيداً بعد أربعة أشهر ونيف من انطلاق الشرارة، لهذا يرجع المرء من آن لآخر إلى الخواطر المتناثرة التي كتبها أيام الثورة –أواخر يناير ونصف فبراير– كي ينتشي

قليلاً ويثق بهذا الشعب. لهذا أرجو أن تسامحني إذا شعرت أنني أقول كلامًا تعرفه جيدًا.. إنني كمن فرغ من التهام ديك رومي ويحاول أن يستعيد مذاقه على لسانه من جديد.

وصلتني الدعوة لتلك الوقفة يوم 22 أو 23 يناير من عام 2010، وكانت رسالة إلكترونية تحمل عنوان جماعة 6 إبريل. في 6 إبريل كانت أول بروفة لثورة شبيهة منذ أعوام، وقد أحدثت قدرًا معقولاً من النجاح، لكن الأمن المصري قد قهر الشرارة سريعًا وكانت هناك نسبة عالية من العيون المفقوءة بسبب الرصاص المطاطي. منذ ذلك الحين أتلقى بانتظام دعوات لوقفات احتجاجية من تلك الجماعة، وهي غالبًا تكون في حدود مائتي شخص يهتفون في مثلث الرعب الأمني الواقع عند نقابة الصحفيين، محاطين بألوف مؤلفة من جند الأمن المركزي بثيابهم السود وعصيهم وصيحاتهم الرهيبة (هوه هوه).

توقعت أن الأمر لن يتجاوز هذه الحدود، وجاء يوم 25 يناير الذي يوافق عيد الشرطة ولم نسمع شيئًا.. في الصباح كانت هناك بضع قلاقل في لبنان استحوذت على اهتمام قناة الجزيرة، وعند الظهيرة بدأت المظاهرات تتشكل في ميدان التحرير وميدان عبد المنعم رياض وعدد من المدن المصرية.

هنا أصابني الذهول.. لم أتصور قط حجم ولا اتساع هذه المظاهرات، حتى أنه عند السابعة مساء بدا أن الأمور تفلت من الدولة تمامًا.. لقد تم

احتلال ميدان التحرير بالمعنى الحرفي، ومعه مدينة المحلة الكبرى – المعقل الصناعي الأخطر في الدلتا – ومدينتي كفر الشيخ والسويس. وكانت المواجهات الأمنية عنيفة إلى درجة لا توصف لكن بدا أن المتظاهرين شديدو الثبات. رفعت سماعة الهاتف وبصوت متحشرج قلت لصديق لي:

ـ"أعتقد أن الأمر أفلت من النظام.. سوف يحتاج إلى الجيش"

راح يضحك ساخرًا مني. قال لي إن الدولة في مصر عتيقة عريقة في القمع ولا يمكن أن تزعزعها مظاهرات خمس ساعات، لكني لمحت علامات النهاية بشكل ما.. ما أراه يختلف عن أية ذكرى سابقة باستثناء 18 و19 يناير عام 1977 التي أطلق عليها (مظاهرات الخبز) وأطلق عليها السادات (انتفاضة الحرامية).

تتزايد الأمور والحشد...

وفي يوم الجمعة التالي الموافق 28 يناير جاءت الدعوة للتظاهر بعد صلاة الجمعة. وجلسنا نستمع إلى خطبة الجمعة.. طالت جدًا جدًا وكان كلها كلام عن عدم شرعية الخروج على الحاكم وحرمانية التظاهر.. الخ.. تبادلنا النظرات.. ورأينا كثيرين من المصلين يلبسون حذاءهم ويغادرون المسجد دون أن يكملوا الخطبة. هذه الخطبة لم يكتبها الإمام قطعًا بل كتبها (مراد بيه) أو (أشرف بيه) ضابط أمن الدولة في مكتبه. وقد تكررت الظاهرة في كل مسجد في

كل مدن مصر تقريبًا. (بعد نجاح الثورة راح نفس الإمام يطري الثوار ويهنئنا على أننا صرنا قادرين على الكلام بلا خوف).

في ذلك اليوم حدث أغرب شيء في العالم. توقفت الهواتف المحمولة عن العمل وتوقفت شبكة الإنترنت تمامًا. عمى إلكتروني ورقمي كامل وضعونا فيه، حتى أننا عدنا للماضي مئة عام.. لقد قرر النظام إنه ما دام الاتصال بين الشباب يتم عبر الإنترنت وعبر الهاتف المحمول.. إذن فالويل لهما.. أما عن قناة الجزيرة فتلاشت من أجهزة التلفزيون... وبما أن الحرب الألكترونية في ذروتها.. تتلاشى الجزيرة فيتم البحث عنها.. ثم تتلاشى من جديد... الخ.. قناة سي ان ان تربنا ما يحدث في شوارع القاهرة مع تعليق يقول: "الحقيقة أن مصر لم تعرف قط يومًا كهذا!". ومصطفى الفقي على قناة الجزيرة يتساءل في دهشة: أين الرئيس مبارك ؟.. لقد حان وقت ظهوره!. فجأة صار (منا) وليس (منهم). التلفزيون المصري وقنواته الفضائية يرسم لنا قاهرة مليئة بالورود ونيلاً هادئًا صافيًا..

لا أعتقد أن هناك حكومة قد بلغت هذا الحد من قمع المعلومات من قبل، أما من يتصل بالمحمول طلبًا للغوث أو الإسعاف فله الله. لكن بدا بوضوح أن النظام لم يعد يبالي بصورته أمام العالم أو يدعي أنه متحضر. وكان هذا اليوم من أعنف أيام الثورة، على أنه انتهى نهاية محتومة هي أن الأمن تراجع تمامًا

وقد أنهى آخر ما عنده، ونزع الضباط ثيابهم وفروا من سخط الجماهير. وعند السابعة مساء كان الأمن قد ذاب تمامًا واستعان بقوات الجيش. كنت أقل زوجتي بالسيارة لتوبتجيتها في المستشفى. فلم أستطع أن افتح عيني من رائحة الغاز المسيل للدموع برغم أن شارع البحر كان خاليًا من الناس تمامًا، فقد انتقل الزحام لمواضع أخرى من المدينة.. ومن بعيد كنت أسمع صوت الرصاص والانفجارات الصادرة من تدمير قسم أول وقسم ثان بطنطا على أيدي البلطجية..

مبارك يظهر في ساعة متأخرة بعد ثلاثة أيام من الأحداث ليلقي خطابًا لا قيمة له تقريبًا.. وكما يقولون: متأخرًا جدًا قليلاً جدًا.. كل ردود أفعاله متأخرة وبطيئة، وفي كل مرة يتصرف ككاتب قصص بوليسية يحاول أن يقدم للقارئ آخر شيء يتوقعه في كل خطاب..

– الغباء الأمني: تلك المزيج الفريد من الشراسة والغباء الذي لا تجده إلا لدى الضباع. كان المتظاهرون يسجدون لله خلف إمامهم عندما تقدمت مصفحة الأمن وراحت ترشهم بالماء بلا توقف. أدرك كثيرون القيمة الرمزية للمشهد وانضموا للساجدين الذين واصلوا الصلاة غير مبالين بسيل الماء. لو أن أبا لهب أو شارون كان في القاهرة لما جرؤ على تجاوز هذا الخط الأحمر، لكن الحقيقة هي أن الأمن كان قد فقد أعصابه تمامًا ولم يعد يحاول أن يرسم ابتسامة متحضرة، وسوف يظل هذا المشهد خالدًا لأنه قد تم تصويره. ترى عربات

الأمن تندفع وسط صفوف المتظاهرين لتسحق عشرات منهم، وترى ذلك الشاب الذي يقف بلا سلاح أمام القناصة فيلوح بذراعيه في حركة مسرحية جديرة بقصص مكسيم جوركي.. للأسف لم يكن القناصة من قراء مكسيم جوركي؛ وقد أطلقوا عليه طلقة واحدة أردته صريعًا وسط صراخ النسوة اللاتي صورن المشهد. هذا الموقف جدير وحده بأن يشعل ثورة.

- كلما هبت الشعوب العربية غاضبة ظهرت صورة جمال عبد الناصر من مكان ما.. عبد الناصر يصر على العودة فلا يريد أن يترك الشعب العربي وحده أبدًا.

- العبرة بالنهايات: مبارك بطل حرب أكتوبر الواعد أنهى حياته برقصات الفرح في الشوارع والرقص فوق الدبابات، وعبارات التهاني يتبادلها 85 مليون مصري لرحيله.. لشد ما تتألم النفس إذ ترى ما وصل له هذا الرجل بسبب التعالي واحتقار شعبه والالتصاق بكرسي الحكم وابنه جمال وكل المليارديرات الذين ترك لهم بلدًا بحجم مصر كي يتسلوا بإدارته. أبدًا لن يتذكر أحد حسني مبارك بحرب أكتوبر بعد اليوم.. سوف يتذكرون أنه الرجل الذي كاد يحرق مصر وكاد يشعل فيها الحرب الأهلية لمجرد أن يبقى يومًا آخر.

- كانت السياسة واضحة: إما ان أستمر في الحكم أو أسلمكم مصر محروقة على طريقة نيرون (وما زالت هذه السياسة قائمة). بدا هذا واضحًا في

عبارة (أنا أو الفوضى) التي كررها في خطابه، وكان التنفيذ على الأرض جليًا.. لقد انسحبت الشرطة تمامًا من الشوارع.. لم يعد هناك رجل مرور واحد، وفي الوقت ذاته أحرقت كل أقسام الشرطة في البلاد تقريبًا، وفتحت السجون ليخرج منها الخطرون تحت تهديد السلاح.. الخطرون الذين سطوا على أقسام الشرطة ليأخذوا السلاح، من ثم سادت ظاهرة البلطجة والسطو المسلح. بدا واضحًا أن النظام يمارس عقابًا جماعيًا على الشعب المصري.. انهوا هذا العصيان قبل أن تتبخر البلاد. وكنت علي يقين أنه في لحظة من اللحظات أصدر النظام تعليماته للدبابات بإطلاق المدافع على المتظاهرين أو وطئهم بالجنازير، كما حدث من قبل في الصين، ورفض الجيش طبعًا. ما كنت لأندهش لو حدث هذا لأن النظام برهن عن احتقار واستخفاف بالمصريين يفوق الوصف.

- الإعلام المصري مارس لعبة قذرة.. اللعبة التي مارسها الإعلام هي لعبة التخويف، حيث راحت مكالمات ربات البيوت المذعورات تنهمر على وسائل الإعلام: أنا خائفة وعصابات البلطجية تملأ الشارع.. انقذونا!.. لا تخافي.. سوف نرسل لك الجيش حالاً.. بالفعل بدأت اللعبة تؤتي ثمارها. وترددت عبارة "ما الذي فعله بنا هؤلاء المجانين ؟.. كنا مظلومين يستلب حقنا ومالنا وكرامتنا لكننا كنا في أمان!". وفي هذا المناخ تتضخم الشائعات بقوة.. الحافلة التي أنزل البلطجية من فيها من نساء واغتصبوهن.. من الذي

رأى هذا ؟.. لا أحد.. كل واحد سمع هذا من فلان.. وفلان سمع هذا من فلان..الإعلام المصري يمارس الكذب ثم الكذب ثم الكذب.. هذه قلة من العملاء تلقت تدريبًا على الإرهاب في إيران والموساد. وتنهمر المكالمات ليقسم كل من يتصل أن هناك عملاء يتكلمون الإنجليزية يملئون ميدان التحرير، وهم يوزعون على كل شاب يهتف ضد مبارك 20 يورو ووجبة كنتاكي. وفي المجتمع المصري سادت دعابة تسمية الكشري والفول باسم كنتاكي.

- البقاء في السلطة ستة أشهر أخرى لم يكن لمجرد الحفاظ على كرامة الرئيس، أو تسليم البلاد في سلام كما قال مبارك.. وإلا فماذا يستطيع عمله في ستة أشهر مما لم يستطع عمله في ثلاثين عامًا ؟.. لا شك أن المطلوب كان فترة تسمح للحيتان بترتيب أمورهم وإخراج ما تبقى من أموال لهم في البلاد وإخفاء آثار جرائمهم. لقد انكشف جزء من المجرور ففاحت روائح عطنة.. لكن غطاء المجرور ظل يخفي الكثير، وقد كانوا حريصين على إبقاء الغطاء فترة أخرى.

- عندما يصلني خطاب ملهوف من سوريا وخطابات ملهوفة من تونس ومن السعودية ومن.. ومن... وعندما أجد أن فرحتهم حقيقية برحيل الطاغية، حتى لأوشك أن أرى الدمع في عيونهم. فليقل من يريد ما يريد، لكن الوحدة العربية حقيقة.. وحدة اللغة والجغرافيا والتاريخ المشترك، بعد ما علمونا لبضعة عقود أن هذا وهم صنعته الحكومات الشمولية العتيقة. دعك من التهاني

للشعب المصري من كندا وكوريا والنرويج وفرنسا و.. و... إن هذه الشعوب لا تحترم سوى الكرامة مهما بدا أنها تشفق على الشعوب المقهورة.

- هذا الحدث يذكرنا بثورة 1919 ويتجاوزها.. لقد استخرج من النفوس المصرية طاقتها والكثير من حماستها وتوهجها.. كما قال أحد الشباب: لقد عرفنا الطريق لميدان التحرير وسوف نعود كلما اقتضى الأمر. إن الدكتاتور القادم لا وجود له أو سيفكر كثيرًا جدًا قبل أن يظلم شعبه. إن الغد صعب والتحديات جمة، لكنك على الأقل من يصنعه وليس لجنة السياسات.

ويريدون أن يضيعوا هذه السيمفونية العذبة الجميلة في مظاهرات طائفية وفئوية حمقاء، ونغرق بين ضيق أفق البعض، والمؤامرات التي اجتمعت عليها ذئاب الحزب الوطني التي دفعت الملايين لتدخل المجلس ثم وجدت نفسها في الشارع، والمتسلقون الذين جاءوا من فراغ، وذئاب أمن الدولة التي تملك الوسيلة والرغبة في تدمير كل شيء، ودول تمثل أعداءنا ودول تمثل الرجعية..

يجب أن نلزم الحذر ولا نضيع كل شيء.. يجب أن نتماسك ونؤجل المصالح الذاتية بعض الوقت. يجب أن نعمل ونتفهم ونتسامح، وإلا فنحن نخون تلك الأيام القدسية.. نخون كل شهيد لقي ربه من أجلنا.



سجن الديابة ورق

أحاول أن أبتعد بك عن السياسة بعض الوقت، لكن هنا مستحيل.. السياسة في هذه الأيام تتسلل من تحت الأبواب وعبر خصاص النافذة ومن تحت الملاءة. أول ما تبدأ به يومك وآخر ما تنهيه به.. هناك 85 مليون سياسي

محتك في شوارع مصر، وكل واحد لديه رأي.. آراء تبدأ بأمثال هيكل وهويدي وتنتهي بسائق التاكسي الذي يبدأ وينهي كل عبارة بـ (يا با شمهندس). حتى بائعة الخضر على الناصية أخبرتني وهي تدس الهاتف الجوال تحت الطرحة لتتفرغ يداها لتقشير الكوسة، صارحتني بأن التعديلات الدستورية غير كافية..

هكذا قررت أن أتكلم في السياسة لكنها ليست سياسة بالضبط.. اعتبرها ذكريات.

أيام الحيرة الأولى في الكلية والتقلب في محيط الأفكار، والبحث المنهك عن حقيقتك.. أنت تعرف من أنت.. لكنك تجهل تمامًا ما أنت. في هذه السن التهمت كل كتاب وقع تحت يدي تقريبًا، ووضعت عشرات الخطوط تحت السطور، ولم يكن من الغريب أن يلتقي في داري يوم السبت مجموعة من الأصدقاء الملتحين الذين يتحدثون عن تطبيق الشريعة ودولة الخلافة، وكان اسمهم في ذلك الوقت (الجماعة الإسلامية)، وفي يوم الاثنين تجد عندي في الدار مجموعة من المثقفين العصبيين الناحلين الذين يتكلمون عن دكتاتورية البروليتاريا وحتمية الثورة العالمية، وكان كل واحد يترك لي كتبًا.. لهذا كان من السهل أن ترى أشعار هاشم الرفاعي إلى جوار أشعار لوركا...

قد يخطر ببالك أن المجموعة الأولى كانت أكثر أمنًا في ذلك الوقت، لكن دعني أذكرك أن هذه هي الأعوام التالية لاغتيال السادات مبكرًا، عندما عرف النظام أنه من المستحيل احتواء الإسلام السياسي أو مهادنته كما حسب السادات، وبالفعل دخل عدد كبير من المشايخ السجون، ومع الوقت صارت اللحية جريمة أمن دولة في حد ذاتها. لكن النظام كذلك ظل يخشى الشيوعيين والناصريين.. صحيح أنه لا يفهم حرفًا مما يقولون لكنه يراهم مريبين بما يكفي.

كان لنا ذلك الصديق الذي يمكن تلخيصه بعبارة واحدة (مناضل ماركسي). حماسه لا ينتهي ولا يكف عن الكلام والجدال.. أعتقد أنه اعتقل بعدد شعرات رأسه، وقد صارحته أكثر من مرة بأنه يجد معدنه وجوه الطبيعي في الاعتقال والحجز وأمن الدولة.. هذه دعابة لم يفهمها قط على كل حال. ولم يكن مستعدًا لقبول كلام هيكل، حول أن التنظيمات الماركسية لم ولن يكون لها مستقبل في العالم العربي أبدًا.

أقرضني ذات مرة شريط الكاسيت هذا فسمعته وانبهرت. كانت عليه أغان طازجة جدًا ورائعة الجمال، وكان التسجيل جيدًا برغم أنه لم يتم في ستوديو. أنت سمعت تسجيلات الشيخ إمام وتعرف هذه الضوضاء الكابوسية التي تتبين فيها الحروف بصعوبة، لكن التسجيل هنا كان واضحًا.

وعرفت أن صاحب هذا الصوت والألحان شاب مناضل يدعى (فاروق

الشرنوبي)، ولم أكن أعرف الاسم قط قبل ذلك. للأسف لا أذكر اسم صاحب الكلمات الرائعة، ولفترة طويلة ظللت أدندن هذه الألحان، وكتبت في خيالي فيلمًا كاملًا تلعب فيه هذه الأغاني دورًا محوريًا. كان هناك فيلم من إخراج (هال آشبي) اسمه (مرتبط بالمجد – 1976) عن مطرب شعبي أمريكي يدعى وودي جوثري، وهذا المطرب اختار – على طريقة سيد درويش – أن يغني للفقراء والمطحونين.. ينام معهم في العراء أو في عربات قطار البضاعة ويأكل ما يأكلون، وقد رفض كل فرصة ليصير مطربًا ثريًا شهيرًا. أعتقد أن أغاني الشريط صالحة جدًا للنسخة المصرية من الفيلم.

بعد فترة أخبرني صديقي المتحمس أن (فاروق الشرنوبي) سيقدم حفلًا في حزب التجمع بطنطا ليلة الخميس القادم. طبعًا كان لابد أن أذهب. لم أخبر أبي لأنه كان يعتبر حزب التجمع مزودًا بعجلات.. ما أن أدخل حتى يغلقوا المكان بالجنازير ويدفعوا البناية كلها على العجلات إلى أمن الدولة حيث يحرقوننا بالكهرباء ونموت.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها حزب التجمع.. وفوجئت بأنه شقة ضيقة جدًا في الطابق الأرضي، ضمن مجموعة من المساكن الشعبية. شارع ضيق بدوره طفحت فيه المجاري. والشقة بها ما لا يقل عن 200 شخص مما جعل الحركة شبه مستحيلة، لكن يظل بوسعك أن تطلب كوبًا من

الشاي الساخن يصلك بمعجزة ما دون أن يحرق أحدًا.

كان (الشرنوبي) مسلحًا بعود وله نظرات ثاقبة مليئة بالحماس تلتمع من وراء نظارته. وكان يرتجف انفعالًا.. تذكرت على الفور ذلك الساحر الذي كلما نطق بتعويذة نقص عمره ثلاثة أعوام. لا شك أن كل أغنية يغنيها هذا الشاب تختصر من عمره قليلًا، لأنه يحرق في غنائها أعصابًا ودمًا. لن أنسى وقفته حاملًا العود وخلفه مكتبة معلقة بها بعض المطبوعات، فكلما انفعل ارتطم بالمكتبة وأسقط مجلدًا أو اثنين.

ومع صوته الساحر ودقات على المنضدة من أحد رفاقه، دارت السهرة..

كانت الكلمات شبيهة بالقنابل... الأغاني قادمة من عالم الشيخ إمام فعلًا، لكنها مختلفة تمامًا. أذكر منها تلك الأغنية:

الجمر لسه ف قلبنا احنا.. ما خطاش الضلوع

والحلم لسه في العيون واحنا.. لسه ف مطارحنا نبشر بالطلوع

والسجن يتعمر بأنفاسنا وناسنا.. تلمع العسكر وتسكر بالخضوع

واحنا على جبل الخلاص

موتنا محتم بالنزول أو بالرجوع

ما لناش سبيل غير الطلوع

آن الأوان.. ما بقاش في غضب العمر جوه القلب يا عشاق مكان

يالله اصرخوا..!

وبكل خوف العمر على المهر البارز في الضلوع..

يالله اطلقوه!

واتوجعوا لحظة ما حيشق الضلوع ساعة الطلوع اتوجعوا!

واتمتعوا لحظة ما حيطير ف الفضا فارد شراعه اتمتعوا!

أما عن اللحن يا أخي فلن تصدقه. بالفعل يمكن لهذه الأغنية أن تخلق ثورة. إنها المادة الخام للقشعريرة..

وهذه الأغنية الحزينة:

يا مصر يا أم الغلابة.. سجن الديابة ورق

زي القصور الهابة... ف الثورة راح تتحرق

يا مصر شدي الربابة.. خللي الغنا ينطلق

يسرح يطوف ف الحواري.. يملا الغيطان والبراري

من كان يتصور أن (سجن الديابة ورق) فعلاً ؟.. كان على هذه الأبيات

أن تنتظر 28 عامًا كي تثبت أنها حقيقية، أما في ذلك الوقت فقد كانت الداخلية تبدو شيئًا عصيًا على القهر بأية قوة أرضية. وكنا ننظر من النافذة فنرى جوار عمود النور ذلك الرجل الريفي ذا الجلباب والمعطف الذي يمسك بعصا ويحاول أن يبدو طبيعيًا. هل هم يوزعون على المخبرين زيهم الرسمي (اليونيفورم) قبل العمليات ؟.. هل يعتقدون أنه يخدع أحدًا، أم أن المطلوب أن يعرف الجميع أنه مخبر ؟..

لم ينس الشرنوبي أن يغني أغنية ظريفة يغازل فيها هذا المخبر الذي (ترمقه عيونه الجريئة من الشباك). وكانت هناك أغان ساخرة يقلد فيها لهجة السادات (يا مصريكاني.. فين الأماني المجباني ؟.. وسنة 80 ؟.. يا ولادي 80.. فيلا وبواب.. خنزيرة عالباب.. وميه سخنة ف الواسير.. وعلى الجمعية مفيش طوابير).

كان السادات قد وعد المصريين بقدوم الرخاء عام 1980 وانتهاء كل مشاكلهم.. طبعًا لم يبد أي أثر لهذا في الأفق وما زلنا ننتظر!

أما أغنية الأفراح الحديثة فيغنيها الشرنوبي:

الحنة والصبحية....

وعرفت صبية وعيني عليها وعينها عليا.. وعين الناس مستنية

وقبل الحنة أبوها وأخوها وخالة وعمة قالوا لي : استنى!

حتدخل جنة.. لابد المهر بألف وجنبيهم مية!

طبعًا كان بوسع **1100** جنيه أن تحدث المعجزات في ذلك الوقت (عام **1983**).. قبل أن تصير الحد الأدنى الممكن للحياة.. وهكذا يكون على العريس البائس أن يجمع هذا المبلغ الفادح:

وطلعت ألف

نزلت أرفّ

وبخت سنين وعملت الألف

لاقيت الألف ف سوق العفش ما بتكملش..

العفش بألفين وشويه

هكذا يتجه إلى النجار طيب القلب:

عم يا نجار.. أنا بالي احتار..

طب ما ترخص لي السعر يا عم.. ماهيتي يا دوب على قد الحال ؟

- يا بني أنا شغال.. لا انا صاحب مال..

ولا بملك ف الورشة ناحيه.. غير عرقي وأجر اليوميه..

أعمل لك كنبه وطبلية ؟

- وخلو الشقة يا بلديا ؟

- افرشهم ف رصيف يا عنيا..

- حتشيلني أونطاش الداخلية..

- طب سافر لبلاد مغنية..

هنا يتوقف العريس التعس وقد أدرك أن هنا هو الحل الوحيد فعلاً:

عيني يا بلدي.. وشفقتي عليا..

زاحموك طيبة وحرامية..

لا الحنة ولا الصباحية..

لا الحنة ولا الصباحية.

كل الغناء بالعامية ؟.. لا.. هناك لحن لقصيدة محمود درويش الشهيرة (سجّل.. أنا عربي)... وهو لحن لا يوصف..

وهناك أغنية شبيهة بأغاني عمال التراحيل تحمل في قلبها أحزان هذه الأرض منذ عهد مينا:

وكل ما أطل

أنا المصلوب على بابك بايد الكل

يا عشقي يا اللي أعتابك طواها الذل

أضم الشمس وترابك وأموت ف الضل..

أموت إزاي وأنا الشاهد على بكره ؟

أنا الفكرة..

أنا الفاس اللي نق وشق بطن الغيط..

أنا في المصنع الكفنة وبرضه الزيت

أنا الرقة ف بحر النيل

وباشرب ميتي عكرة

أنا البدر اللي ف المواويل

وتنسيني وانا ذكرى ؟

خسارة يا مصر

يا اللي القصر بيبكيكي ويقتلني

خسارة يا مصر

أنا اللي عشق نور الشمس ف عنيكي مبهدلني!

أما اللحن الذي بدأ الحفل وأنهاه به فكان:

الشمس أم الشعاع

والوردة بنت الربيع

كل المتاع مشاع

والأرض ملك الجميع

أبدًا لن أنسى تلك الليلة.. ولقد رأيت عروضًا غنائية فاخرة بعد ذلك، لكني لن أنسى كل هذا الصدق وكل هذه الموهبة. وقد ظللنا جميعًا منتشين لا نلمس الأرض برغم أن كلاً منا لاحظ أن شخصًا ذا جلباب يتبعه بعد الحفل، وكلما توقف توقف الشخص ليتظاهر بأنه يربط الحذاء!.. هذه أشياء متوقعة..

بعد هذا توارى فاروق الشرنوبي تمامًا.. ثم ظهر في وسائل الإعلام يتكلم عن فوازير شريهان وأغنيته الجديدة لوردة.. الخ.. صار نجمًا لكني أعترف أنني كنت أحب الأول أكثر. أين ذهبت تلك الأغاني الساحرة ؟... بالطبع كان من الصعب أن يحييها في العهد البائد، لكن لماذا لا يعاود إحياءها في العهد الجديد ؟.. ماذا عن فيلم عن الثورة تصاحبه هذه الأغاني ؟.. فيلم قريب من (مرتبط بالمجد - **1976**) الذي تكلمت عنه...

لو قرأ هذه الكلمات واحد ممن يعرفون شيئًا عن هذه الأغاني فأنا أرجوه أن يرد علي.. هذه الألحان من الحرام أن تموت.



شفرة التواريخ

عندما تقرأ هذا المقال في بداية شهر مارس – لو أحيانا الله – فلا يمكنني بالضبط معرفة ظروف البلد وقتها. حفظ الله مصر وأخرجها من هذا المنعطف الضيق الذي تمشي فيه اليوم. أذكر أنني كتبت يوم **18** يناير في أحد مواقع الإنترنت عن فيلم أمريكي، ونشر المقال يوم **28** يناير بينما النيران في كل مكان، حتى أن أحد القراء أصيب بذهول لأنني رائق المزاج إلى هذا الحد!. وبنفس الطريقة أجريت لقاء تلفزيونيًا مع اللاعب بلال فضل، وكانت النتيجة

أن اللقاء أذيع يوم 31 يناير.. هكذا فوجئ الناس برجل متخلف عقليًا يتكلم عن تجربته في كتابة أدب الرعب، بينما نار الثورة تتعالى وسط القاهرة..

لا أعرف كيف ستكون الظروف عندما تقرأ أنت هذا المقال، فسامحني قليلاً وتذكر أنني أكتب هذه الكلمات قبل قراءتك لها بعشرين يومًا! لكني على الأقل أعرف الآن أننا سنكون قد تخلصنا من سيناريو التمديد والتوريث ولجنة السياسات والحزب الوطني، ولربما تكون ملفات الفساد قد فتحت وعرفنا الكثير.

كان لي صديق اعتاد أن يتنبأ بسيناريوهات الغد الكابوسية، فكان يقول لي: "عندئذ ستجد الدبابات في ميدان الساعة..!"

باعتبار هذا أسوأ ما يمكن أن تصل له الأمور. ميدان الساعة هو أهم ميدان في طنطا بالمناسبة، واليوم هناك عدة دبابات تقف فيه.. أي أن أسوأ كوابيسه تحقق.. لكننا نحمد الله أنها ليست دبابات معادية، بل هي دباباتنا.. جاءت لحمايتنا، وكما ثبت مؤخرًا لحماية مصر كلها..

انتهى شهر فبراير.. وقد كنت أحمل لفبراير كراهية خاصة.. لا.. ليس لنفس أسباب الأطباء المعروفة إذ يقل عملهم فيه جدًا ويطلقون عليه (فقراير)، ولكن لأنه الشهر الذي توفيت فيه أمي في السبعينيات وتوفي أبي في التسعينيات.. ويبدو أنني أنوي الموت فيه كذلك لأنه يحمل دائمًا وعكة صحية

لي، والطريف أنها وعكة صحية متجددة في كل مرة.. أي أن المرض ذاته لا يتكرر مرتين!

اليوم جاء فبراير بذكرى باسمة لأول مرة، عندما لم تنم مصر ورقص شبابها في الشوارع.. انتصر فريقنا القومي من الشباب على الطغيان.. مباراة طويلة استغرقت 18 يومًا وكلفتنا الكثير من الدماء والشباب اليانع وساعات الخوف والخسائر الاقتصادية، وحتى معقل الحضارة ذاته في المتحف المصري جرح وخسر بعض القطع، لكن الثمن كان يستحق.. استعادة حريتك التي استلبت ثلاثين عامًا تستحق..

من الغريب أن الشعب المصري استرد حريته في ذات اليوم الذي استرد فيه الشعب الإيراني حريته من طغيان الشاه عام 1979.. نفس اليوم 11 فبراير وإن فصل 32 عامًا بين الثورتين. مصادفة غريبة.. أليس كذلك ؟.. لم يفر مبارك.. لكن الشاه فر إلى مصر وكان مصابًا بالسرطان اللمفاوي الذي تفاقم، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في مستشفى المعادي..

من ضمن المصادفات الغريبة كذلك وفاة الفريق سعد الدين الشاذلي في نفس يوم نجاح الثورة. أي أن أحد قادة حرب أكتوبر كان يرحل وسط جحافل الشعب الغاضبة بعد ما دمر ذكراه تمامًا، فلن يذكر عنه العالم سوى أنه الرجل الذي كاد يحرق بلده وشعبه كي يبقى بضعة أيام أخرى يرتب فيها أمواله، في

الوقت ذاته كان قائد آخر من قادة حرب أكتوبر يرحل إلى الفردوس بإذن الله، تصحبه دموع حارة وزغاريد أطلقها الشعب لأنه اعتبره شهيدًا بإذن الله.. الشعب الذي لم ينس ولن ينسى للشاذلي أنه صاحب خطة العبور، وأنه ظُلم في حياته بقسوة، وهو القائد الوحيد الذي لم يكرم بين رجال أكتوبر بسبب خلافه مع أنور السادات.

لعبة التواريخ الغريبة تعلن عن نفسها....

لا أعرف إن كنت الوحيد الذي لاحظ هذا أم لا، لكن شهر فبراير يحمل كذلك ذكرى قاسية لحادثين مروعين يصعب نسيانهما. والغريب أنه بينما الشارع ملتهب وميدان التحرير يعج بمئات الألوف، تعود هذه الذكرى كأنها تبتسم في قسوة.. هل هو القصاص ؟.. لا أعرف.. لكنه جاء بطريقة شعرية شكسبيرية غريبة فعلاً.

في 2 فبراير عام 2006 غرقت العبارة: عبارة السلام 98 التي كانت متجهة من ضبا إلى سفاجا. فرحة العودة للأهل والوطن بعد أعوام من الغربة.. البعض كان عائدًا من الحج.

العبارة كانت شركة السلام قد اشترتها من إيطاليا عام 1998، وقد تم تدشينها عام 1970 وقضت معظم شبابها في المياه الإيطالية..

كان سبب غرق العبارة هو حريق نشب في المحركات وانتشر بسرعة..

وكانت في هذا الوقت قريبة من مدينة الغردقة. حاول البحارة إطفاء الحريق عن طريق نزح الماء من البحر بالمضخات.. ولكن المضخات التي كانت تطرد الماء للبحر ثانية لم تكن تعمل.. النتيجة هي أن الماء تزايد داخل العبارة وانقلبت.

كان غرق العبارة عرضًا مذهلاً للإهمال والتلفيق، خاصة أن أوراق الفحص وشروط السلامة مكتملة، لكن هذا كان مجرد حبر على ورق.

تلقت غرفة عمليات الإنقاذ في أسكتلندا استغاثة العبارة، وأبلغت مصر بها، لكن الشركة المالكة لم تخطر السلطات قبل مرور ست ساعات ثمينة..

لابد أن المشهد كان شنيعًا جديرًا برواية (لورد جيم) أو فيلم (التايتانيك) والناس تتمنى وصول النجاة، وتتأرجح بين الأمل واليأس.. ونحن نعرف أن المشهد المأساوي انتهى بغرق 1200 واحد انتشلتهم فرقاطات مصرية مع سفينة حربية بريطانية وطائرة استطلاع أمريكية.

كشفت التحقيقات عن حقائق مرعبة يعرفها كل المصريين.. القبطان فر في قارب وحده وبعض معاونيه وترك الركاب لمصيرهم. وقد تم التحقيق في القضية لمدة عامين وانتهى بالحكم الذي وجده أقارب الضحايا تافهًا لدرجة لا تصدق..

بينما كان الحكم يصدر كان مالك العبارة (ممدوح إسماعيل) وولده قد

غادرا مصر عبر صالة كبار الزوار، وفرا إلى لندن. ولعل هذا من أهم مسامير نعش النظام السابق لأن الناس لم تستطع أن تنسى.. لماذا لم يتم منع (ممدوح إسماعيل) من الهرب ؟. وشاعت في المجتمع المصري مقولة إنك إذا قتلت واحدًا تعدم، أما إذا قتلت ألفًا فأنت، تغادر مصر من صالة كبار الزوار لتعيش عيشة الملوك في لندن.

على كل حال صدر حكم المحكمة بتبرئة إسماعيل وولده وآخرين. وجدير بالذكر أن عبارة أخرى لهم هي (فخر السلام 95) غرقت قبل هذا بعام في حادث تصادم، وتوفي شخصان وجرح أربعون شخصًا.

(ممدوح إسماعيل) قد حفر اسمه بقوة على النصب التذكاري لأعداء الشعب المصري، وصار من ضمن أسماء كثيرة يكرهها رجل الشارع فعلاً.

هل شاءت الأقدار أن يتم الانتقام لأرواح هؤلاء الضحايا في نفس الشهر بعد خمسة أعوام من وفاتهم ؟.. لا أستطيع أن أقول هذا..

في 20 فبراير عام 2002 احترق قطار الصعيد :

هذه قصة قاسية أخرى جعلت الكل يؤمن أن هذه الحكومة منحوسة، لكن هذه القصة تختلف نوعًا عن الموت في البحر غرقًا أو طعمًا لأسماك القرش.. هنا الميتة أكثر شناعة. ببساطة أنت مسجون في عربة قطار مندفع والنيران

تشتعل في كل شيء، فلا تجد سبيلاً للفرار من الباب.. تتجه للنافذة وتتمسك بها لكنها مدعمة بالقضبان.. هكذا ليس أمامك سوى انتظار النيران. أعتقد أن الله كان رحيمًا فمات أكثر هؤلاء بالصدمة العصبية قبل أن تمسهم النار.

بدأت القصة في ذلك اليوم الأسود عندما كان ذلك القطار متجهًا من القاهرة إلى أسوان. الساعات الأولى من يوم 20 فبراير والكل نائم منهك، يحلم بقضاء عيد الأضحى مع أسرته.. القطار غادر مدينة العياط.

هنا يبدو أن أحد الركاب بالعربة الأخيرة أراد أن يعد بعض الشاي.. اشتعلت النيران ولم يستطع الفرار منها، ثم تمسكت الألسنة بالمقاعد وبدأت تنتقل بسرعة البرق.. بالطبع ساعدت الريح في هذا..

النوافذ التي بلا قضبان هشمها الركاب الصارخون ووثبوا من القطار المسرع.. هلك عدد كبير منهم..

تأخر الوقت حتى لاحظ السائق ما حدث فقام بفك العربات الأولى من القطار، ثم طلب النجدة وانطلق بالنصف الأمامي من القطار خشية حدوث شيء آخر.. بالطبع لم تكن هناك طفايات حريق أو أية وسيلة لمكافحة النيران.. دعك من الزحام وسهولة اشتعال المقاعد..

خلال نصف ساعة انتقل فريق طبي لمكان الحادث ومعه 90 عربة

إسعاف و60 عربة إطفاء.. أو هذا ما قاله د. عاطف عبيد رئيس الوزراء وقتها..

التقديرات الرسمية قالت إن الضحايا 350 لكن بعض العالمين ببواطن الأمور –أو يتظاهرون بذلك – يقولون إن الرقم أكبر بكثير.. ربما يجب أن تضيف صفرًا!.. ولربما كانت هذه مبالغة..

على كل حال لا شك أنها كارثة يصعب وصفها. استقال أحمد الدميري وزير النقل، بينما حاكمت المحكمة 11 شخصًا بتهمة الإهمال الجسيم.. لكن لم تنس المحكمة أن تعلن رأيها الصريح الصادق: هذه الحوادث لن تتوقف، وفي كل مرة يتم التضحية بعمال بسطاء أو رءوس صغيرة (ليروحوا في داهية) كي يظل الكبار في مأمن..

كارثتان من ضمن كوارث عديدة عشناها مع ذلك النظام ويبدو أن موعد القصاص قد جاء، برغم أنه لن يعيد تلك الحيوات الزكية ولن يعوض أمًا عن ابنها الذي غرق في العبارة أو ابنًا عن أبيه الذي احترق في القطار. دعك طبعًا من حادث انهيار صخور الدويقة الذي... لا.. حادث الدويقة وقع في سبتمبر لحسن حظك، لذا سأرحم أعصابك قليلاً واكتفي بهذا القدر..

بقي أن تتذكر أن هذا الشهر يضم ميلاد واحد من أشرف وأنكى من

أنجبتهم مصر: د. جمال حمدان الذي ولد يوم 4 فبراير وغير نظرتنا لوطننا للأبد، ثم لقي حتفه وحيدًا وهو يطهو لنفسه بعض الفول على موقد بعد ما عومل كما يعامل كل علماء أمتنا. ويحمل هذا الشهر كذلك تاريخ اغتيال زعيمين إسلاميين فائقي التأثير؛ هما حسن البنا في مصر وبالطبع لا نحتاج لأي شرح لمن هو، ومالكولم إكس في أمريكا. يحمل كذلك ذكرى مذبحة الحرم الإبراهيمي المروعة. لا أعرف كيف أربط بين هذه الأحداث، لكن هناك رسالة ما لا أستطيع استيعابها. ربما تستوعبها عقول أكبر مني بكثير.



ولا تنسوا عم حجازي..

ما زال الوقت مبكرًا للحكم على مدى نجاح فيلم الفاجومي. هناك مشكلتان: أن يكون الفيلم جيدًا، وأن يستقبله الناس جيدًا لو كان جيدًا. أنا لم أر الفيلم بعد وأتلهف لمعرفة ما تم صنعه. غرابة وأهمية هذا الفيلم تنبعان من أنه الفيلم المصري الوحيد على قدر علمي الذي يؤسس على شخصية ما زالت

بيننا (أعطاه الله طول العمر والصحة)، وهو شرف لم ينله رؤساء مصر المتعاقبون ولم ينله أي نجم، وبالتأكيد يعتبر هذا سلوكاً محموداً إذا كان سيمنح الشخصية ما تستحقه في حياتها بدلاً من الطريقة الجنائزية المعروفة: "خسارة.. لقد كان فلان بيننا ولم يأخذ حقه".

عندما سمعت عن الفيلم، تذكرت على الفور فنان الكاريكاتور الرائع حجازي، والسبب طبعًا هو الدور الذي يعترف أحمد فؤاد نجم بأنه لعبه في حياته. كان معه طيلة الوقت في فترة من الفترات، ويقول نجم إنه كان (ينكشه) كثيراً.. مثلاً سأله عما إذا كان قد قرأ بيرم التونسي، فرد نجم بطريقة الفاجومي: (ما عجبتيش). هنا قال حجازي: (انت ابن.... كداب). وأعطاه ديوانًا لبيرم قرأه نجم فعلاً. عندها أدرك أي شاعر مرعب هو بيرم. لقد تعلم نجم – بشهادته – كثيرًا جدًا من حجازي، لكن بتلك الطريقة الساحرة.. فهو لم يشعر قط أن حجازي يعلمه أو يتعالى عليه بالمعلومة، وأعتقد أن طبيعة نجم الجامحة تجعله ينفر على الفور من كل من يلعب معه دور المعلم..

هكذا يعترف نجم بوضوح بأن حجازي لعب معه دور المعلم الروحي أو الـ mentor الذي قال كامبل إنه محوري في تكوين شخصية البطل الملحمي.

لعب حجازي دورًا عظيم الأهمية لدى جيل بكامله، ومن المؤسف أنه توقف تمامًا واعتزل الناس. والأسوأ أنه يقيم على بعد أمتار مني لأنه موجود

في طنطا، لكني عجزت تمامًا عن معرفة عنوانه ولو عرفته لما رحب بي، وقد خذلني كل أصدقائه الذين وعدوني بأن يأخذوني معهم لزيارته. قيل إن اعتزال الكون هنا بسبب الإحباط أو اليأس من التغيير، وقيل إن خجل الفنان الطبيعي تغلب عليه. حجازي خجول جدًا بشهادة الجميع وينفر من التجمعات. لقد كان يقيم في النيل فترك الشقة ولم يأخذ مليمًا مقابل ذلك، وعاد إلى طنطا ليعيش وسط شلة أصدقاء ضيقة جدًا، وليشعر بأنه قريب من الريف والبسطاء الذين لا يشعر بالراحة إلا معهم.

تقول موسوعة الويكيبيديا عنه إنه واحد بين 11 أخًا، وإن بيته يوجد على جانب شريط السكة الحديد في كفر العجيزي بطنطا، وإنه عمل في مجلة صباح الخير!.. هكذا فقط!.. كأن موهبة حجازي العظيمة هي أنه ولد في كفر العجيزي!. أحيانًا تكون هذه التقارير مضحكة جدًا، تذكرني بتقرير المخابرات المصرية الذي أورده هيكل، إذ يتكلم عن قائد العمليات الإسرائيلية في فلسطين عام 1948 فيقول التقرير: (هو فلاح ضخم الجثة)!. يقول هيكل إن ذلك القائد مفكر سياسي مهم وكانت له وقتها كتب تملأ الأسواق في أوروبا، فمن الغريب نوعًا ألا يقول عنه تقرير المخابرات سوى إنه فلاح ضخم الجثة..!

نشأت لأرى رسوم حجازي المميزة في مكانين: مجلة صباح الخير ومجلة سمير.

لم يظهر حجازي في منافسة سهلة، فقد كان عصره يعج بأسماء مثل الليثي وبهجت وصلاح جاهين.. لكنه استمر وحفر لنفسه مكانًا واضحًا عميقًا.

كان له أسلوب معين فريد من نوعه.. أعتقد أنه الرسام الأكثر مصرية في تاريخ الكاريكاتور، ومن المستحيل أن تجد له شبيهًا بين الرسامين العالميين. تشربت أنماط رسومه.. الثري الأصلع اللص الذي يلبس نظارة وبذلة سوداء وسعيد بنفسه، والعامل الفقير بفانلته الداخلية الممزقة والسيجارة في يده وزوجته الحامل حلوة الملامح التي ما زالت ترضع طفلها وتربط رأسها بمنديل بأوية. الفتاة المصرية الحالمة التي رسمها كما لم يرسمها فنان آخر.. أعتقد أن سعاد حسني قد أثرت بشدة في ملامح الأنثى التي يرسمها.. ضفائرها وأهدابها الطويلة السوداء ونظرتها الجانبية... تنظر لمن ؟.. للشاب المصري الوسيم كما يرسمه حجازي بقامته الفارعة وعضلاته وشاربه.. ثم الطفلة الصغيرة الدقيقة الحافية، التي قد تكون شغالة صغيرة، والتي تراها في كل ركن بالحارة، وتحمل صاجات الكعك في العيد. العبقرية كل لا يتجزأ، لهذا سوف تشعر أنك رأيت بعض هذه الوجوه في أوبريت الليلة الكبيرة مع عرائس السقا. ألم تكن هي نفس الطفلة الصغيرة التي ضاعت في الزحام يا ولداه؟.. بنت تايهة طول كده.. رجلها الشمال فيها خلخال زي ده.. كأن الفتاة هربت من أمها لتعمل مع عم حجازي..

هناك مفاتيح بصرية خاصة بحجازي. المدفع له شكل معين وعلى

طريقة المصريين القدماء يظهر المدفع والمسدس في وضع بروفيل بينما ترى الفوهة كاملة الاستدارة كأنها في وضع (فاس). الأرانب وأوراك الدجاج والسمك في الأطباق.. كلها رموز بصرية ألفها القارئ. حتى اوراق العملة لها طريقة بصرية مألوفة. وعندما يريد أن يوحي لك بالإفراط في الزخرفة فإنه يصنع ذلك بخطوط مرهقة فعلاً. هو في كل هذا لا يقلد أي رسام عالمي، وأعتقد أن فناننا الجميل عمرو سليم جاء من نفس المقلع الذي جاء منه حجازي.

الكل في عوالم حجازي لهم مظهر لذيذ، حتى الأشرار أنفسهم لا تملك إلا الابتسام عندما تراهم. لكن انحيازه للفقراء واضح جدًا. هناك كاريكاتور شهير له يظهر عربة كارو بها بعض الفلاحين يرقصون ويطبلون في مرح زائد، بينما تمر جوارهم سيارة فاخرة يجلس بها مجموعة من الأثرياء مكفهري الوجوه، وفتاة قبيحة تنظر من النافذة مشيرة للفقراء قائلة: بابا. الناس دي شكلها مبسوطة أكتر مننا ليه ؟

كل رسم لحجازي يحمل فكرة تبقى معك.. فهو بالتأكيد لا ينتمي بتاتًا لمدرسة الكاريكاتور السطحي الذي يتكلم عن الحموات والزوجة الشرسة والمشاكل اليومية التافهة. لكن رسومه كذلك ممتعة ومبهجة جدًا.. طلاوة لا شك فيها خاصة عندما يكون مزاجه رائقًا ويستعمل الألوان.

مصري بفظاعة.. مصري حتى النخاع، خاصة عندما ترى الموظف

الجالس بالبيجامة الكستور المقلمة يدخن أمام التلفزيون، وزوجته تصب الشاي في أكواب رخيصة، وعينها على ابنتها المراهقة الواقفة في الشرفة تتلقى نظرات صامتة هائمة من ابن الجيران. لو أردنا فنانًا واحدًا نعرضه على الغربيين ليعبر عن الكاريكاتور المصري فأنا أرشح حجازي أولاً، وإن كنت أعتقد أن المشاهد الغربي لن يتذوقه جيدًا.. إن تذوق حجازي بشكل كامل يحتاج إلى أن تكون قد شممت رائحة طشة الملوخية، وعانيت أعاصير النار في معدتك بسبب الفول والطعمية، وتعرف ما هو المغات وما هي زفة الطاهر، ومذاق الذرة المشوية دون نزع قشرتها.

لم ير أحد حجازي وهو يرسم، ولم يعرف أحد طقوس الرسم عنده، لأنه كان يذهب مبكرًا جدًا لمجلة صباح الخير وينهي كل شيء قبل أن يأتي أحد. وهي سمة عامة لدى هؤلاء الموهوبين.. لم ير أحد بيرم التونسي وهو يقرض الشعر، أو صلاح جاهين وهو يرسم، أو أحمد رجب وهو يكتب.. لم يكن حجازي ممن يظهرون في البرامج التلفزيونية ليرسموا..

كان حجازي يقدم في مجلة سمير قصص (تنابلة الصبيان)، وهي قصص ما زالت تثير دهشتي.. هناك قدر غير عادي من التنبؤ بما سيحدث في مصر. كتبت منذ أعوام عن هذه القصص قائلاً: "الكبار كعادتهم ينظرون لما يطالعه أطفالهم على أنه (شغل عيال).. من هذه الثغرة تسلل حجازي وألف ورسم

أجرأ قصص يمكن تصورها.. لابد أن رجل المخابرات كان يقضي يومه في تعذيب الاخوان والشيوعيين، وينقب بالميكروسكوب في كل مطبوعة وجريدة، ثم يشتري مجلة سمير في طريق العودة ليقرأها أطفاله.. غير عالم أنها تحوي قصص (تنابلة الصبيان) لحجازي..

"لقد كان الانفتاح في علم الغيب.. ولم تكن هوجة الأطعمة الفاسدة ولا الغش الصناعي قد بدأت، وما أذكره – على قدر علمي – أن الشرطة كانت في خدمة الشعب وقتها قبل أن يصير الشعب في خدمة الشرطة.. لكن عمنا حجازي يقدم لنا ثلاثة أطفال كسولين شديدي البلاهة والخبث هم تنابلة الصبيان.. هؤلاء الأطفال القادمون من بلاد السلطان يلعبون بالاقتصاد المصري لعبًا.. لقد استعملوا علب البولوبيف المصنع في الغرب وغيروا الورقة اللاصقة عليه ليبيعوه على أنه منتج مصري مائة في المائة!.. وزارة الصناعة تهلل والإعلام يصفق والمذيعات البلهاوات يجرين معهن اللقاءات.. لقد صاروا من أقطاب الصناعة في مصر وهم نصابون لا أكثر.. الأدهى أنهم يتفقون مع نشال مشهور هو (علي عليوه) ليسرح رجاله لسرقة رواتب موظفي شركتهم أول الشهر!.. وهكذا يدور المال دورته ويتمكنون من دفع الرواتب أول كل شهر.. يقرر الموظفون ركوب سيارات أجرة لتفادي النشل، هنا تتبدى سخرية حجازي عندما تكتشف أن قوانين الشركة تحتم على الموظفين العودة بالأوتوبيس!..

واحد فقط يكتشف المهزلة هو سمير نفسه.. يحاول فضح التنابلة ويوزع المنشورات ضدهم فيعتقل، وتحاكمه محكمة أمن الدولة ويلقى به في السجن.. وفي النهاية يفر التنابلة بما سرقوه إلى الخارج!.. (هذه النهاية اضطرت دار الهلال لتغييرها في الألبوم الذي أصدرته للقصة في عهد السادات)..

"هناك قصة أخرى لتنابلة الصبيان تحكي كيف تقمص أحدهم دور ضابط والآخر دور وكيل نيابة والآخر دور طبيب، وهبطوا على قرية مصرية بريئة ليتحالفوا مع العمدة والبقال الثري (حسبو) وينهبوا مواشي الفلاحين.. مع أغنية تتردد باستمرار هي (الهش كده.. كل ولاد العز كده.. أما ولاد الفلاحين.. سود ومش قد كده!).. لاحظ أننا لا نتكلم عن مسرحية لـ (نعمان عاشور).. بل قصة أطفال مصورة.. يا للرسام العبقري الخبيث!.. كل هذا قبل الانفتاح بثمانية أعوام!..

"لكن السبب الذي جعل هذه الأعمال تمر تحت أنف الرقابة هو نفس السبب الذي جعلها تتبختر كأنها لم تكن: أنها قصص أطفال.."

كيف تنبأ حجازي بهذا كله ؟.. إن حساسيته السياسية مرهفة جداً، وأعتقد أنه تعذب بها كثيراً، فقد كان يرى وسط الضباب بوضوح.

لم يكن جيل الكبار كله واهنًا صامتًا.. اعتدنا أن نقول هذا تعاطفًا مع الشباب ثم انبهارًا بالثورة، ولكن في هذا بالتأكيد الكثير من الظلم لأمثال

حجازي وغيره من الشرفاء الذين لم يصمتوا لحظة في عهود الظلم، وعندما تكلم د. فاروق الباز عن الأجيال الفاشلة السابقة، فقد ردت عليه الأستاذة سناء البيسي بحزم في مقال جميل وذكرت أمثلة للذين حاولوا..

لم يكن حجازي من المتخاذلين بالتأكيد، بل قاتل كثيرًا جدًا.. أعتقد أن حياته كانت سلسلة من المعارك والحروب بلا توقف. وفي النهاية هو ممن لم يحصلوا على شيء.. إنه زاهد تمامًا في أي مال أو منصب أو نفوذ أو شهرة. كل لوحة رسمها حجازي كانت ضربة عنيفة قوية سددها لجدار الطغيان والظلم والغباء الإداري.. ضربة عنيفة كانت تؤذي ذراعه هو نفسه. عندما انهار الجدار في 25 يناير فعلينا ألا ننسى الضربات التي ملأته بالشروخ من قبل.

نعم.. لا تنسوا عم حجازي في هذه اللحظات، وأترككم مع لوحة جميلة لا أستطيع نسيانها: عندما تحررت سيناء رسم حجازي مسئولاً منتفخ البطن والأوداج ونظارته سوداء ويدخن السيجار يدخل إلى سيناء، وأمامه يغني مطرب منافق من إياهم على العود: "حنزرعك مواويل خضرا.. ونزرعك غناوي". نرى فلاحًا مصريًا أصيلاً وزوجته يحملان الفأس والقلّق، والفلاح يقول: "بعد إذنكم سيبونا احنا نزرعها بطريقتنا وما تتعبوش نفسكم!". كاريكاتور يلخص كل شيء.. ليتنا مرة واحدة نفعل بدلاً من أن نغني..

مارا – صاد



عندما كنت في الكلية كانت هذه المسرحية رائجة جدًا ومفضلة لدى كل أندية المسرح الطلابية، والحقيقة أن الأخ بيتر فايس له شعبية خاصة عند الطلبة بهذا النوع من المسرح التسجيلي الذي يقدمه، وهو شبيه نوعًا بمسرح بريخت.. هناك إصرار شديد على التغريب. بعبارة أخرى: جعل المشاهد لا يندمج مع المسرحية بأي ثمن.. لابد من أن يعرف المشاهد يقينًا

أنه يشاهد مسرحية.. لابد أن يعرف أن هذا البكاء غير حقيقي وهذه الضحكات غير حقيقية.. ربما وضع الممثلون الماكياج أمامه أو خرج مهندس الديكور ليضع قطعة أثاث مكان أخرى.. الغرض هو أن تفكر ولا تنفعل. أما عن موضوع المسرح التسجيلي هذا فهو موضة غريبة نوعًا، حيث كان الممثلون في (غول لوزيتانيا) يقرءون تقارير كاملة للأمم المتحدة وصفحات كاملة من الجرائد.

الاسم الحقيقي للمسرحية هو (اضطهاد واغتيال جان بول مارا كما قدمته فرقة تمثيل مصحة شارنتون تحت اشراف السيد دي صاد)، وهو بالطبع عنوان مرعب، لهذا يفضل الجميع تسميتها مارا- صاد. لو كنت قد شاهدت فيلم (ريش الكتابة Quills) فأنت تعرف هذا الجو برغم اختلاف القصتين تمامًا. الموضوع هو أن الماركيز دي ساد الأرستقراطي فيلسوف الألم، والذي قضى حياته يبشر بأن أروع شيء في العالم هو أن تضرب حبيبتك وتدميها وتجلدها وتلسعها بالنار. هذا الدي ساد كان قد اتهم بالجنون وسجنوه في مصحة شارنتون، حيث لم يكف عن الكتابة...

البطل الثاني هو جان بول مارا الذي كان بطل الثورة الفرنسية قبل أن تلتهم الثورة نفسها ويدب الخلافة بين روبسبير ومارا ودانتون... كان مارا في تلك الأعوام يجلس دائمًا في حوض الاستحمام الشهير المليء بالكبريت بسبب مرض جلدي لعين أصابه، وهذا المرض كان يجعله يهرش دائمًا.. مشهد غريب

طبعًا أن ترى قائد الثورة الفرنسية جالسًا يملي قراراته ويوقع أوراقه وهو عار في بانيو. وفي هذا الوقت بالضبط كانت هناك فتاة مجنونة اسمها شارلوت كوردي، اعتقدتْ أنها جان دارك وأن الله يأمرها بقتل مارا.. هكذا اشترت سكينًا ممتازة محترمة جدًا واتجهت إلى حيث كان مارا يجلس في البانيو فقتلته ليتلوث ماء الحمام بالدم.. هذا المشهد موضوع لوحة شهيرة جدًا لديفيد موجودة في بروكسل اليوم، وأرجو أن تسمح التعقيدات التقنية بعرضها مع هذا المقال.

المهم أن عمنا بيتر فايس التقط هذا الخيط الثري وكتب مسرحيته التي خلبت لب الطلاب على مدى عدة عقود، هي ومسرحيته الأخرى (أنشودة غول لوزيتانيا)، طبعًا عندما عرضت المسرحية في الكليات كانت غالبًا تحمل أخطاء مسارح قصور الثقافة والأقاليم عامة.. بصرف النظر عن الديكور البائس المصنوع من الورق المقوى وصفوف المخبرين وجنود الأمن المركزي الجالسين في الصفوف الأولى، أولاً هي تجذب الكثير من الممثلين الراغبين في الصراخ المصابين بنرجسية مفرطة.. وهم يبالغون في الصياح والحركة ليثبتوا عبقريتهم التمثيلية. نفس أساليب الميزانسين حيث يركض اثنان من قلب الديكور المترب صارخين بشيء لا تعرف ما هو ولا تفهم منه حرفًا.. مع داء التحرك نحو الجمهور خطوة مع كل عبارة في تكوينات هندسية يعتقدون أنها تذكرك بالمسرح الإغريقي.. وهناك ممثل يصر على اعتصار التصفيق فيصرخ وهو ينظر

للسقف مسكاً بعنقه: "باتخنق.. باتخنق".. ثم يسقط فيجد الجمهور أنه مجبر على التصفيق. دعك طبعًا من المخرجين الذين يصرون على وضع رموز لم يضعها المؤلف. مثلاً يهتف الأبطال: "بالروح بالدم نفديك يا مارا". هنا إسقاط مذهل يعتقد المخرج أنه يمكن أن يشعل ثورة.. ويوشك على أن يفقد وعيه طربًا.. كل هذه العيوب المعروفة شوهت المسرحية قليلاً لكن النص ما زال في غاية القوة..

الإطار العام لهذا العمل هو مسرحية داخل مسرحية.. تدور الأحداث بالضبط في 13 يوليو 1800. نحن في عصر دكتاتورية نابليون بونابرت.. دي ساد يخرج مسرحية عن الثورة الفرنسية تنتهي باغتيال جان بول مارا. والممثلون هم نزلاء المستشفى.. سوف نلاحظ أن الممرضات هن رجال أقوياء مفتولو العضلات يلبسون كالممرضات.. المراد هنا أنهن يمثلن السلطة أو القمع.. قوات الأمن المركزي. دي ساد يراقب الأمور في سخرية مريرة ولا يهتم كثيرًا بالسياسة وحقوق الناس.. إنه يشعر أن كل هذا تهريج لا يقارن بالثورة الحقيقية على قيود النفس من أجل المزيد من الشهوات. لاحظ أنه يتكلم بحرية تامة بينما مدير المصحة الأحمق يعتقد أنها مسرحية صحيحة سياسيًا تتملق نظام بونابرت القمعي.. نرى المواجهة بين الثائر وبين المفكر المخبول.. ماذا لو صار مارا نفسه بطل مسرحية دموية يخرجها الماركيز دي ساد نفسه ؟.

إن مارا يمثل شيئًا مهمًا.. يمثل أحلام الثورة التي أحبطت والثورة التي تتعثر.. مع شعور الناس بخيبة أمل حقيقية. وفي ذات الوقت بدأ الثوار يمارسون ذات الممارسات التي ثاروا بسببها.. وفي بداية المسرحية تسمع هذه الأغنية الملهوفة:

مارا.. فين راحت ثورتنا ؟.. مارا.. ليه سكتت غنوتنا ؟

مارا.. مش قادرين نستنى..

لسه فقرا زي ما كنا..

لسه الشعارات هيا حياتنا..

لسه الأحلام هيا قوتنا..

النهارده.. هات لنا بكره

مش قادرين نستنى لبكره..

سبب أن العبارات مسجوعة هو أنني كنت قد شرعت في تحويلها لنص شعري بالعامية أيام الكلية، وهي محاولة لم تكتمل قط.

إن مارا يشعر بالذنب والمسئولية الهائلة تجاه هذه الجموع. لكنه عاجز عن عمل شيء وفي الوقت نفسه هو يعرف يقينًا أنه سيموت لأننا نرى شارلوت كوردي العازمة على قتله من اللحظة الأولى. وهي تقول:

-"إنني أقتل فردًا من أجل إن أنقذ الألوف.. من أجل أن أحرر الألوف"

دي صاد يعتبر نفسه ثائرًا هو الآخر.. لكنه ثائر من نوع خاص.. ثائر على القيود الأخلاقية التي يضعها المرء لنفسه. وهكذا يتردد بقوة السؤال: هل الثورة الحقيقية هي تغيير المجتمع أم تغيير النفس؟

وفي أغنية جميلة فعلاً يقول دي صاد لمارا إن الناس رفعت توقعاتها عاليًا مع الثورة.. هناك الشاعر الذي يبحث عن قصيدة.. وهناك الترزي الذي يحتاج لخيط. وهناك الصياد الذي يريد صنارة وشبكة للصيد.. وهناك الزوجة التي تبحث عن زوج فارع الطول وسيم. كلهم توقعوا أن الثورة ستجلب لهم صنارة وخيطًا وقصيدة وزوجًا وسيمًا.. عندما يكتشفون أن الثورة لم تجلب شيئًا من هذا وأن صناراتهم مكسورة وخيوطهم مقطوعة وقصائدهم مكسورة الوزن، والزوج ما زال في الفراش يغط واللعاب يسيل من فمه، يكون غضبهم جهنميًا. وبالطبع سوف ينصب على مارا...

وفي أغنية أخرى يقولون:

عاوز أفهم مين اللي خدعنا؟

مين بدد دمنا ودموعنا؟

أنا فلاح وسليم النية..

كل الناس دول ضحكوا عليا..

قالوا وقالوا مليون مرة

احنا خلاص حققنا الثورة..

الخنازير البرجوازية.. تشرب خمرة في الفسقية.. واحنا نطاطي نبوس الطين!

إن قوى الثورة المضادة التي خسرت الكثير بقيام الثورة قررت أن تعمل على تشويهها وتدميرها بأي طريقة، وعلى إثارة الفوضى في الشارع.. وفي النهاية انتهى الأمر إلى أن يمسك نابليون بونابرت زمام الأمور.

في مقطع آخر ترجمة الأستاذ يسري خميس – الذي ترجم المسرحية عن الألمانية – يقول الدهماء:

من يسيطر علي الأسواق؟ من أغلق مخازن الغلال؟ من اعتقلنا بدون وجه حق؟

نحن أصحاء ونريد الحرية!

كما لو أن الأغنياء سوف يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر.. وحين تضطرهم الظروف لأن يتراجعوا مرة أو أخرى فسوف يفعلون ذلك.. لأنهم يعلمون جيدًا أنهم سوف يربحون ثانية..

لا تخدعوا أنفسكم إذا ما كسبتم بعض المال، وتمكنتم من شراء بعض الأشياء التي يبيعها لكم رجال الصناعة..

وإذا ما تخيلتم أن الرخاء على الأبواب..

فإن ذلك كله مجرد وهم ابتكره هؤلاء الذين ما زالوا يمتلكون أكثر بكثير مما تملكون..

أيها المواطنون. إن بلدنا في خطر..

الشعب لا يمكنه أن يدفع أسعار الخبز المرتفعة

حرب أهلية جديدة تشعلها الثورة المضادة

لا شيء حتى الآن استفادة المعدمون من الأراضي الواسعة..

هل كافحنا من أجل حرية أولئك الذين ينهبوننا من جديد؟

نحن الآن في مرحلة الانحلال والفوضى..

هذا حسن

هذه هي المرحلة الأولي

والآن

يجب أن ننتقل إلي المرحلة التالية.

طبعًا في نهاية المسرحية تقوم شارلوت كوردي بقتل مارا كما توعدت منذ البداية. والمسرحية تعتبره شهيدًا ومفكرًا اشتراكيًا نبيلاً لم تمنحه الناس

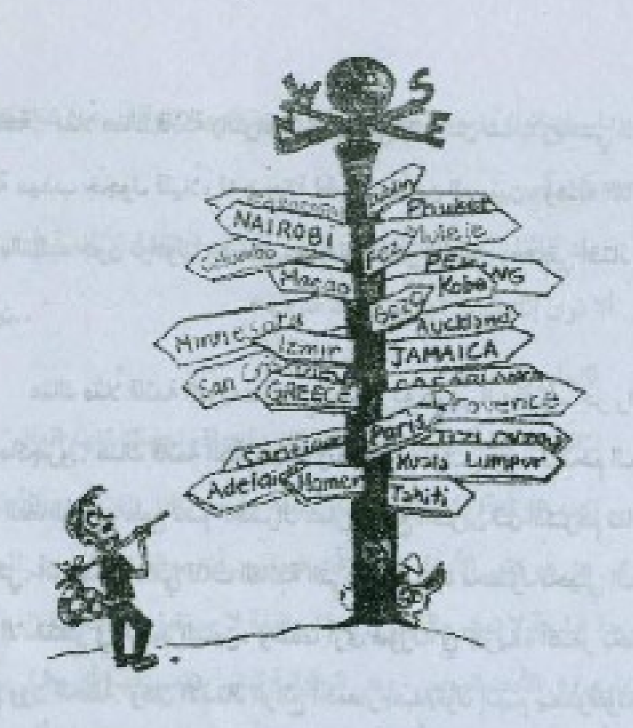
فرصة. وبرغم هذا تتعامل معه ببرود شديد وعدم تعاطف على الإطلاق، مما يميز المسرح التسجيلي عامة.

تطرح المسرحية عشرات الأفكار المهمة، وأعتقد أنه لابد أن نتذكرها اليوم في هذا المنحنى الضيق الذي تعبره الثورة.. لقد أعيد إصدار المسرحية مؤخرًا عن هيئة قصور الثقافة وأقترح أن يقرأها من لم يفعل. ولكن يجب ألا ننسى المقطع الأخير:

" نحن الآن في مرحلة الانحلال والفوضى.. هذا حسن. هذه هي المرحلة الأولي..والآن..

يجب أن ننتقل إلي المرحلة التالية."

الثورة الفرنسية لم تنتقل للمرحلة التالية؛ لهذا استولى بونابرت على الحكم وكان هناك من حمدوا له ذلك باعتباره الحل الوحيد الذي ينهي الفوضى. علينا أن نتعلم من هذا الدرس... المرحلة الثانية هي الأهم.. الانتخابات وإعادة البناء وألا نترك الفرصة لبونابرت آخر كي يسيطر على كل شيء.



جامع الأحلام

عرفت هذا الرجل منذ أعوام.. قابلته في الدقي..

منذ زمن عرفت أن البشر أنماط محدودة يمكن أن تصنف كل واحد منهم

في قائمة.. مثلاً هناك قائمة (الترافولتيات) التي تضم كل شاب رياضي طويل القامة مهذب خجول قليلاً، له ضحكة لطيفة تبدأ من العينين، وهذه القائمة تضم بالتأكيد جون ترافولتا والخطيب وإيمان البحر درويش وصديقي أستاذ طب العيون..

هناك مثلاً قائمة الدريات، وهي تضم درية شرف الدين وسحر رامي وآلي ماكجرو.. هناك قائمة الشارونيات وتضم كل حلوف بري متضخم البطن شديد الفظاظة، وبالطبع تضم الجنرال شارون مع آخرين لن أذكرهم تفاديًا لقاضاتي. أنا نفسي أنتمي لذات القائمة التي ينتمي لها محمود محيي الدين وزير الاستثمار في العهد السابق، وعندما أرى صورته في جريدة أشعر بحالة انعدام وزن للحظة. وكان الأستاذ الرائع أحمد رجب يقول إنهم يستوقفونه في كل المطارات لأنهم يشتبهون به.. عرف فيما بعد أنه يشبه جدًا أحد زعماء المافيا الأقوياء.!

عندما قابلت الأستاذ عارف وجدت أنه لا ينتمي لأي قائمة عرفتها.. لا أذكر أنني عرفت هذا النمط من قبل. نظارة.. نظرة كئيبة مرهقة.. شعر مجعد شاب نصفه.. في الخمسين من عمره.. متزوج لكنك لا تشعر بتاتًا بذلك ولا يتكلم عن أسرته أبدًا.

كان يحضر دورات في اللغة الروسية في أحد المراكز هناك.. وكان يجيد

قول (داسفيدانيا) و(سباسيبا) كالعادة، ويتكلم بلا توقف عن تشيكوف وماكسيم جوركي..

عند لقائنا الثاني اكتشفت أنه يحضر دورات في اللغة الألمانية في مركز آخر.. ألا ترى إنك تبالغ قليلاً يا أستاذ عارف ؟

قال لي في حماس:

ـ "اللغات مهمة جدًا.. تعمق خبراتك بالحياة وتجعلك تفهم العالم"

لكنه ظل لغزًا بالنسبة لي.. هل عمله يجعله يقابل الكثير من الأجانب مثلاً ؟.. هل هو كثير الأسفار ؟.. عرفت فيما بعد أنه موظف في السجل المدني في درجة إدارية لا تبشر بالكثير.. هناك وظيفة لا مستقبل لها اسمها (المساعد الاعتباري) في الأدب الروسي، وهي الوظيفة التي ينتمي لها أي بطل يريد المؤلف ألا يكون له وزن ولا أهمية.. لنقل إن الأستاذ عارف هذا كان أقرب إلى المساعد الاعتباري..

إذن هو لا يؤدي وظيفة تتطلب هذا العلم باللغات..

بعد هنا وجدت أنه يقترض كتبًا عن البلدان من المكتبة العامة، ويعد دراسات مطولة عن بلدان بعينها مثل السويد وألبانيا.. الخ.. سألته عن سبب هذا الحماس، فقال لي إنه يحب أن يعرف كل شيء عن البلد قبل أن يزوره.. إن الأسفار توسع مداركك وتجعلك تعرف العالم أكثر.. المهم أن تعرف أين

تذهب ومن تقابل ومتى...

كان الأمر يتجاوز الهواية.. هناك كمية معلومات غير عادية لديه بدءاً بأفضل المطاعم التي يمكن شراء الأكل الحلال منها، وطريقة تبديل العملة، وأماكن العثور على أرخص عروض التسوق.. الخ .. الخ..

هنا دليل مفصل لمن يرغب في زيارة البلدة...

كنت أتفحص دليلاً من هذا الطراز في ذهول.. صور ومعلومات وفهارس وأرقام هاتف.. كان يتكلم عن باريس بدقة مروعة، فقال لي صاحبنا:

-"العرب لا يهوون السفر.. منذ أيام الرحالة العظام من طراز ابن بطوطة وسواه، صار العرب أكثر ميلاً للاستقرار في مكان واحد. ويمكنك بسهولة أن تدرك أنهم تدهوروا منذ فقدوا غريزة السفر.."

قلت له:

-"لكنك تجد العرب في كل مكان من العالم اليوم.."

-"أنت تتحدث عن العرب الذين يذهبون إلى باريس مثلاً، فلا يرون أي شيء من باريس.. يتسوقون في الشانزليزيه طيلة اليوم ثم يهرعون إلى الفندق ليلقوا بحقائب مشترواتهم، ثم يهرعون من جديد لشراء المزيد.. ثم يخبرهم أحدهم بأن هناك متاجر رخيصة اسمها (الايتلت) فيهرعون إلى هناك. عندما لا

يبقى من الوقت إلا يوم؛ يجرون ليلتقطوا صوراً لهم بسرعة أمام قوس النصر وبرج ايفل ليثبتوا أن ما اشتروه كان من هناك.. هؤلاء لم يروا باريس وكان بوسعهم أن يحققوا نفس النتيجة لو زاروا أي مول فاخر في بلادهم...."

قلت له:

-"أنت خبير في باريس فعلاً"

قال في ثقة:

-"طبعاً.. صحيح أنني لم أرها قط، لكن عندما أذهب هناك ستكون المهمة سهلة"

كان يزداد خبرة وعمقاً.. كما أنه كان يقابل العائدين ويصغى لهم باهتمام. وكم من مرة قال لي:

-"أنت لا تعيش حقاً.. كل من لا يسافر ولا يرى العالم هو جثة تتحرك لا أكثر.."

الحقيقة أنني كنت أمقت السفر.. يبدو أن جدي كان من تلك الأشجار التي تولد وتشيخ وتموت في ذات المكان. عندما انتوي السفر لمكان ما أصير عصبياً جداً ولا أنام جيداً وأتشاجر بسهولة كأنني ذاهب إلى العالم الآخر لا إلى بلد آخر.. يتساوى الأمر سواء كنت ذاهباً إلى المنطة أو تفهنا العزب أو

النزويج.. فإذا جاءت ليلة السفر خيل لك إنها ليلة إعدامي، مع كل هذه العصبية وضيق الخلق..

يبدو أن أبي يرحمه الله هو الذي أعطاني هذا الطبع.. كان يقول لي إن كل الأماكن تستوي فيما بينها، وانه يمكن أن أقوم بتغيير لافتة (طنطا) بلافتة أخرى تقول (كوبنهاجن) لأكون هناك بلا مجهود.. طبعا ليس هذا الكلام صحيحًا لكنني كنت أعتنقه إلى حد ما..

الأستاذ عارف كان يختلف بخبراته المذهلة في البلدان..

كان يعرف كيف يصل لمتحف مدام توسو في لندن، وبالطبع يعرف كيف يزور المتحف البريطاني.. هو لا يحب حي سوهو بشكل خاص لنفس الأسباب التي يمقت من أجلها شارع بيجال في باريس وباتايا في تايلاند... هو لا يحب بائعات الهوى.. كان قادرًا على زيارة مسجد آيا صوفيا في اسطنبول ويعرفه شبرًا شبرًا.. مساجد تركيا رائعة الجمال فعلاً:

-"لا تنس أن لمسات المصريين الفنية هي التي صنعت هذا كله.. لقد سرقوا الصناع المهرة معهم إلى الأستانة.."

أعتقد أنه قضى وقتًا طويلاً على ضفاف البحر الأسود ، وجرب كثيرًا صيد سمك الحفش... فتح السمكة ورأى كيف يتراص الكافيار بالداخل.. لكنه

بالطبع لا يتذوقه.. إن طعمه شديد (الزفارة) ولابد أن يعالج صناعيًا أولاً قبل أن يؤكل.. سمك الحفش يصنع دخل إيران وروسيا..

كان يسعل كثيرًا في الأسبوع الماضي بسبب استنشاق فضلات الخفافيش في كهوف أمريكا الجنوبية.. عندما تدخل الكهف دون حذر فإنك تستنشق فطر (هستوبلازما) الذي يدمر الرئتين تدميرًا..

عرضت عليه أن أعطيه بعض حقن أمفوتريسين لعلاج داء الهستوبلازما، ثم تذكرت أن هذا كله خيال في خيال..

إن شمس منتصف الليل مرهقة للعينين فعلاً، لذا تؤلمه عينيه مؤخرًا.. الأسوأ هو أن تمشي لساعات وسط الثلوج في ألاسكا لأنك تصاب بعمى الثلوج.. عندما سكنت في شقتي الجديدة قبل أن أقوم بتأثيثها، كانت كل الجدران بيضاء.. أصابني نوع من العته من السير وسط هذا الفراغ الأبيض وشعرت بأن الضباب يغزو كل شيء ويتسرب لعقلي..

هناك مشكلة أخرى هي أن تدبر الطعام لكلاب الهسكي الجوعى التي تجر زحافتك على الثلج.. أنت تعرف أن هذه الكلاب تأكل نفس الكميات التي يأكلها شخص بالغ.

عندما تذهب إلى نيوزيلاند فعليك أن تعرف عادات قبائل الماوري.. اللحم المشوي تحت التراب. الهاكا التي يرقصونها قبل مباريات الرجبي.

مخيفة جدًا على فكرة..

من الممتع أن تجرب رحلات الخلاء وأنت في الجزيرة العربية.. البحث عن الكمأة ثم العثور على الضب وشيه.. سوف تعتاد منظره ومذاقه بعد قليل.. إن لحمه لذيذ فعلاً..

جاءت اللحظة التي سألته فيها عن البلاد التي رآها.. لابد أنه زار بلدًا أو اثنين.. على الأقل كل مصري أعرفه رأى العراق أو ليبيا أو دول الخليج، سواء بحكم العمل أو للقيام بالحج أو العمرة في المملكة العربية السعودية..

هنا جاءت آخر إجابة أتوقعها:

-"أنا لم أغادر مصر قط!... لم أغادر القاهرة قط! كل هذه المعلومات أعرفها من الكتب"

قلت له وقد نفد صبري في النهاية:

-"أرى أنك أعددت نفسك كثيرًا جدًا جدًا.. ألا ترى أن الوقت قد حان للسفر لمكان ما ؟"

نظر لي في عدم فهم فقلت:

-"كل المال في العالم لا قيمة له ما لم تنفقه..وأنت تملك خبرات عظيمة"

في النهاية قال لي في حزن:

-"أنا في الخامسة والخمسين من عمري، ولم يعد هناك وقت كاف لرؤية أي شيء أو السفر.. ليس عندي مال كاف للسياحة.. ثم أن الحقيقة التي أخفيها عن الجميع هي.. هي..."

وأشاح بوجهه في خجل:

-"أنا أخاف ركوب الطائرات جدًا!"

ثم قال وهو يتنهد:

-"المطارات مكان مرعب.. تخيل نفسك في مكان واسع ممتد تشعر فيه بالضياع.. الكل يجري مذعورًا.. وفي كل لحظة يدوي من مكبر الصوت صوت مفعم بالصدى لا تفهم منه حرفًا واحدًا.. رسالة تتكرر بالعربية والإنجليزية والفرنسية وأنت لا تفهمها!"

يمكنني أن أفهم ما يعنيه، واسمه (أجورافوبيا).. وهو نوع مشهور من الذعر.. لكنني لن أذكر له اسم هذا المرض حتى لا يقع في ذعر آخر اسمه (الذعر من الأسماء اللاتينية المعقدة)..

هذه هي مأساة الإنسان على كل حال.. قد يقضي حياته في جمع المال ثم لا يجد الوقت كي ينفق مليمًا، أو ينفق المال على المستشفيات التي تعالجه من

الفشل الكلوي أو السرطان. قد يدخر العواطف وفي ذهنه أن يسكبها عند قدمي امرأة يمنحها كل شيء.. في كل مرة يتضح أن المرأة لا تستحق أو هي المرأة الخطأ أو لا يقابلها أبدًا. هنا يقوم صاحبي بجمع الخبرات في حماسة.. وهو لن يستعملها أبدًا.. لا وقت ولا شجاعة ليستعملها... أن تجمع المعلومات عن البلدان وأنت لا تنوي ركوب الطائرة أبدًا هو نوع من هذا العبث..

هنا لاحظت ملامحه بعناية.. لم يخطر ببالي أنه ينتمي فعلاً لنمط من الأشخاص والوجوه.. هذا النمط هو نمطي أنا.. هذه هي ملامحي أنا.. نمط جامعي الأحلام الذين لا يظفرون بأحلامهم لأنهم يخشون المخاطرة أو يمقتونها، لهذا يقضون الوقت في كتابة الكتب عن أحلامهم تلك..

اتصلت بصديقي بعد أيام لأخبره أن عليه أن يستجمع شجاعته ويذهب لمكان ما قبل أن يموت. عرفت أن كلامي أثر فيه كثيرًا لهذا ذهب يجرب الأسفار.. هناك قرية صغيرة اسمها (كفر الشحاتين) جوار القاهرة، وقد ذهب هناك ليجرب خبراته بضعة أيام. صحيح أنه لن يجد برج ايفل ولا قوس نصر ولا شلالات نياجرا، لكنه على الأقل سيشعر بأنه مسافر لمكان ما!

من يدري ؟.. ربما احزم حقيبتي وألحق به هناك لأمضي أيامًا في السياحة.. فلا حياة من دون مخاطرة...



الطريف في طب الريف

يمر كل طبيب شاب يعمل في الوحدات الصحية الريفية بفترة من الاضطراب ناجمة عن الصعوبات اللغوية التي سنتكلم عنها حالاً، بالإضافة إلى قلة خبرته، واختراقه حاجز العرف والتقاليد أحيانًا من دون أن يعرف..

مثلاً كانت أول حالة أقابلها في الريف هي طفلة في السادسة، وكان ما

قمت به بسيطاً جدًا كما علمونا في طب الأطفال، وهو أنني جعلت الطفلة ترقد وقمت بقياس طولها بالمتر القماشي الذي أحمله، وكانت النتيجة أن الأم وقفت على باب الوحدة وراحت تولول:

-"بيقيسوا بنتي بالمازورة!"

يبدو أنها شعرت بأنني كائن شيطاني جاء من سقر كي يحسد الطفلة، وكان هذا أول درس تعلمت منه ألا ألمس هذا المتر القماشي اللعين أبدًا. الحالة الثانية مثلاً أعطيتها بعض أقراص فيتامين (ب).. وكانت النتيجة أنها جاءت محمولة وقالوا لي إنها لم تتحمل تلك الأقراص وأصابتها الدوخة والدوار وسقطت على الأرض (مع نظرات شك تقول في صمت إنني طبيب أحمق).. نحن نتحدث عن فيتامين (ب) وليس عقار (فنكرستين) الذي يعالج السرطان. كان هذا هو الدرس الثاني، وهو أن الأقراص لا جدوى منها وقاتلة غالبًا....

أحيانًا تأتيك الترضية بطريقة لا تتوقعها، مثل تلك الطفلة الفقيرة الحافية التي قمت بخياطة جرح كبير في جبهتها، والتأم الجرح جيدًا... هكذا جاءت بعد أسبوع إلى العيادة حاملة كوزًا من الذرة المشوية قائلة لي:

-"اتفضل!"

وانصرفتْ!... تأملت كوز الذرة... تذكرت كلمات برنارد شو عن أن

المرء قد ينال أعلى الأجور لكن من النادر أن يعطيه شخص كل ما يملك.. من الواضح أن هذا كل ما تملكه الطفلة ومعنى ذلك أن هذا أعلى أجر نلته في حياتي.. التهمت الكوز في نهم وأعتقد أنه ألذ كوز ذرة أكلته في حياتي..

الاهتمام بالعقاقير بالغ في الريف.. لاحظت أنهم يحبون الأدوية جدًا، وسوف أشرح هذا بالتفصيل بعد قليل. لكن يصعب أن ننسى موقف صديقي الذي جاءته فتاة شابة غير متزوجة تعاني مشكلة.. الدورة الشهرية منقطعة وبطنها تتضخم.. بالطبع لم يصعب عليه أن يثبت أنها حامل. لقد عبثت وكان عليها أن تدفع الثمن.. طلبتْ منه أن يساعدها على الخلاص من هذه الكارثة، فرفض طبعًا.. هكذا اتجهت للباب منهارة وقد أظلم الغد في وجهها.. لا تعرف كيف تخرج من هذا المأزق.. لا تعرف من أين تبدأ الحياة ثانية...

فجأة استدارت له قائلة:

-"ما تجيب حقنتين بنسللين بالمرة ؟"

هي تمقت أن تكون زيارتها بلا منفعة ما!... ومن الصعب ألا تظفر بالإجهاض ولا حقنة بنسللين كذلك!... هذا موقف عجيب لا يجرؤ كاتب على أن يضعه في رواية، لكن الواقع أكثر جرأة من الأدب بمراحل..

نعم.. طب الأرياف علم معقد قد يخطر للسذج أنه يشبه الطب العادي

من قريب أو بعيد.. دعني أخبرك أن علاقة طب الأرياف بالطب الذي تسمع عنه تشبه علاقة علبة السردين بحلف الناتو.. هل تجد علاقة ما؟.. إذن أنت عبقري ولن تلقى مشاكل من أي نوع ..

هذه الملاحظات كتبتها لنفسي أساساً عام **1986** عندما كنت طبيب الوحدة الصحية في إحدى قرى محافظة الغربية، وأعتقد أنها ما زالت صالحة، كما إنني نشرت بعضها على شبكة الإنترنت من قبل.. لهذا لن أبخل بها على القارئ. وقبل أي محاولة ساذجة لإساءة الفهم، أقول إنني فلاح فلا يعتقدن أحد أن هذا المقال يهدف للسخرية لكنه محاولة لكسر الحاجز اللغوي السميك:

علم المصطلحات الطبية Medical terminology الريفي:

استنقال: إسهال وتعنية

تمشية: إسهال

الخاتم والصفرة: فتحة الشرج

زغولة: ارتباك معوي

مباوعة: قيء

النتّ (بفتح النون): حركة الصدر العنيفة لدى الزفير

سقف البدن، سقف الحنك: الرحم

الضهر: الدورة الشهرية

حيل / ولاويز: عقد لقاوية

الجهاز / الشريط: لولب منع الحمل

الإنذار: المنظار

البجْم (بكسر الباء وتسكين الجيم): البنج

علم مسببات الأمراض Pathogenesis الريفي:

يتلخص في كلمة واحدة لا قبل لها ولا بعد: البرد.. البرد يسبب أي مرض في العالم وسوف نكتشف يوماً ما أنه المسئول عن السرطان (لم أكن أعرف الإيدز في ذلك الوقت)..

علم الباثولوجيا Pathology الريفي:

• مرض الكبد: مرض واحد موحد لا فروع له. ينجم عن دودة (الهارسا) وعلاجه هو بأقراص خلاصة الكبد.. لكن لو رشح الكبد فإن هذا هو

الخطر الحقيقي. الاستسقاء في حد ذاتها ليست خطراً طالما أن الكبد لم يرشح..

• مرض الكلاوي: هو مرض واحد موحد. قاتل غالباً. وعلاجه حجر الجنب والكثير من عصير القصب والعرقسوس.

• مرض الجلب: وهو أي مرض قلب أو أوعية دموية.. قاتل دائماً.. ومن يصب به يستحق رحمة الآخرين وعنايتهم.

• مرض الأعصاب: هنا يندرج طب العظام والأمراض العصبية والأمراض الروماتزمية والأمراض النفسية. على أنه حين يتحدث الرجل عن الأعصاب بصوت خفيض فهو يتحدث عن قدراته الجنسية عامة.

• مرض السكري ينجم عن الإفراط في أكل السكريات، وآلام المفاصل تنجم عن الإفراط في أكل اللحم. عامة يمكن علاج السكري بالإفراط في أكل المخللات.

علم وظائف الأعضاء physiology الريفي :

• كمية الدم في الجسم محدودة جداً. سحب 3 سنتيمترات من الدم يقتل المرء أو يصيبه بالعجز طيلة حياته. التبرع بالدم حماقة كبرى.. إذ كيف تقتل رجلاً لتحيي آخر ؟

• البول والمية هما طريقتا الإخراج للجسم البشري.. ما يخرج من الدبر اسمه (بول) وما يخرج من القبل اسمه (ميه)..!.. لهذا من الطبيعي أن تسأل المريض عن حالة البول وحالة الميه..فقط الحمقى يحسبونهما مترادفين.. وقد تسأل المريض عن بوله فيجيب بأنه طبيعي.. ولا تعرف أنه ينزف دماً من مثانته ببساطة لأنك لم تسأل عن(الميه)..

• الطحال مهمته القتل فقط. عندما يكتشف المرء أن لديه طحالاً فهي نهايته..من الطبيعي ألا يكون لدى الإنسان طحال..

• فم المعدة ليس عضواً تشريحياً من لحم ودم.. إنه قضيب محمي أو نار مشتعلة أو حجر رحاية أو أي شيء دائماً...

• فتحة الشرج (الخاتم) في الأطفال لا فائدة لها إلا أن تحتشد حولها ليلاً الديدان الصغيرة الشبيهة بديدان المش..

علم الأعراض الإكلينيكية symptomatology الريفي:

• عامة كل طفح في الجلد هو حرارة..حتى لو كان سرطان جلد.

• عامة كل هرش هو حساسية حتى الجرب نفسه.

• عامة كل ألم روماتزمي هو (نش).

- عامة أي طفل يسعل وترتفع حرارته في أية لحظة تراه فيها في أي مكان.
- عامة أي طفل لا يأكل منذ ثلاثة أشهر في أية لحظة تراه فيها في أي مكان...
- كل فتاة ضغطها منخفض و(هبطانة) في أي وقت تراه فيها..
- السمنة واللون الأبيض علامتا الصحة الوحيدتان.. ولا توجد أية علامات أخرى.
- ارتفاع الحرارة ليس حمى.. الحمى هي التيفود فقط أو كل مرض يهدد الحياة ويستدعي الذهاب لمستشفى الحميات التي تعجل بالوفاة غالبا..
- السماعة تعرف كل شيء وتهمس للطبيب بتشخيص المرض وعلاجه.. لهذا هي لا تخرج إلا لمن يدفع.. لا تتوقع أن يستعمل الطبيب هذه الأداة السحرية للمرضى المجانيين فإن فعل فهو غير جدير بالاحترام.. وربما كان وغدًا كذلك..
- عامة يجب أن توضع السماعة على موضع الألم.. فلو كان رأسك يؤلمك ولم يضع الطبيب السماعة على رأسك، فهو وغد لا خلاق له.
- المستشفيات العامة لا تصلح لشيء لأن (الهمل موجود). (الهمل)

بكسر الهاء هو الإهمال.

علم البحوث الطبية Medical investigations الريفي:

أهم شيء هو التكرير (التحليل).. لابد من الإنذار (المنظار) لكنه صعب ويقتل دائماً... (الأوشاعة) مفيدة دائماً.. "الداكتور جال إذ لابدن عن أوشاعة"

علم الفارماكولوجي pharmacology الريفي يقسم العقاقير إلى نوعين:

1- الدواء: وهو كل ما يوضع في زجاجة ويُشرب..

2- العلاج (بتعطيش الجيم): هو كل ما عدا ذلك!

وينقسم العلاج (بتعطيش الجيم) إلى عدة أقسام:

أ- الحُجن: هي كل ما يحقن.. وهي أهم أنواع العلاج (بتعطيش الجيم) وأفخمها وأقواها أثراً.. عامة يتناسب مفعول الحجن مع ما تحدثه من ألم.. الحجنة التي لا تحرق المريض وتجعله يتلوى ألماً هي نوع من النصب الذي يمارسه أطباء الوحدات الذين لا خلاق لهم..

والحجن عامة ثلاثة أنواع: حجن الجنب (بتعطيش الجيم) وهي كل

ما يعطى للمغص الكلوي. حجن فيتامين. حجن بنسلين أو فايلوسيف وهي تلخص المضادات الحيوية عامة.

ب- الكباسين (الكبسولات): بما أن أغلب الكبسولات تحوي مضادات حيوية، فإن الكباسين هي نوع من العلاج مخصص لتخفيض ارتفاع الحرارة ومهما كانت أسبابها.. وهنا يبرز عقار مهم جداً اسمه (**500**)... لم تسمع منه ؟.. لأنك محدود العلم عدم المؤاخذة.. يقول لك الرجل في فخر: "**500** ده ممتاز.." أو "أنا أديت الوله **500**".. كما تلاحظ **500** هنا هو الاسم العلمي للعقار وليس جرعته..

هناك نوع من الكباسين له أهمية خاصة هو المقويات.. وتستعمل في حالات (الضوعف)..

ج- الجطرات: كلها نوع واحد يصلح لأي شيء بدءاً بالرمد الصديدي وانتهاء بسرطان الشبكية.. يجب أن تترك الجطرة مرارة في الحلق وإلا كانت نوعاً من النصب الذي يمارسه أطباء الوحدات الذين لا خلاق لهم..

د- مراهم: كلمة واحدة جزلة دسمة تصلح لكل شيء بدءاً بالإكزيما حتى الجذام.

هـ- برشام: هذه هي أسفل سلم العقاقير.. ولا جدوى منها إلا أن تقف

في المريء دائماً. تسبب الضغط والدوخة والصداع والهبوط ولابد من (حرجان) في فم المعدة.. وأنت تذكر قصة المريضة التي كاد فيتامين (ب) يقتلها..

عامة طبيب الريف لا يصف لك الدواء الفلاني أو يكتب الدواء الفلاني، ولكن (يطلعه لك)..مثلاً (الداكتور طلعلي كباسين وبرشام)..

هنا هو ما وجدته في أوراقي عن الموضوع، وأعد باستكمال هذا الموضوع العلمي المهم بمجرد أن أتذكر تفاصيل أخرى.

أين هي ؟



حب الطفولة قاس

حقاً..

أعمال فنية نادرة

نجحت في اقتناص هذا الخيط

الموفق. وقصتنا اليوم تحكي عن

حب طفولة مر به صاحبنا وهو

في الصف الخامس الابتدائي..

كان حبًا عاتيًا شديد العنف

والقسوة، ولتذهب الهرمونات

إلى الجحيم فلم يكن لها أي دور

في هذه القصة..

سمراء كانت.. نحيلة كانت.. لها عينا غزال يتلصص من وراء شجرة في الدغل. لا يعرف حقاً إن كانت جميلة أم لا بمقاييس الجمال.. كانت تعجبه

جدًا وكفى. وكانت لها ضحكة خاصة تبرز أسنانها جميعًا في آن واحد، فمن حسن الحظ إذن أن كانت أسنانها نضيدة منمقة..

حب من طرف واحد.. لم يعرف قط إن كانت تلميذة الصف الخامس الابتدائي تميل له أم لا، ولم يهتم بشيء سوى بكونه يحبها جدًا.. ومن الصعب ان تتخيل منظر الصبي ذي الأعوام العشرة وهو يصغي دامعًا لكلمات (عبد الحليم حافظ) الحراقة وهو يغني:

-*"تاني تاني تاني، راجعين للحيرة تاني.. ونضيع وتجري ورا الأماني"*

وكانت تلك الأغنية هي الموضة في ذلك العام.. كانت ساخنة خرجت من الفرن حالاً.

يعرف اسمها — الذي لن أذكره طبعًا — ويعرف عنوان بيتها عندما كتبته على لوح الكتابة في حصة اللغة العربية. لم ينسهما قط..

انتهت المدرسة الابتدائية وجاءت المدرسة الإعدادية وصار أصدقاء الأمس غرباء. كان يعود للمدرسة الابتدائية من حين لآخر ليمشي في الفناء منبهرًا.. في هذا الفناء الصغير الضيق كانت الكائنات الفضائية تحارب المريخيين الشجعان، وكان الهنود الحمر يرقصون، وكان بيليه يقود فريق سانتوس ليحرز 28 هدفًا في الفسحة.. كيف اتسع الفناء لكل هذه الأحلام وهو بحجم البانيو في حمام بيتك؟

هناك رآها ذات يوم وكأنها جاءت لتلقي ذات الأسئلة.. كانت واقفة جوار صنبور الماء وكانت تملأ كوبًا من الماء لطفلة لا تستطيع بلوغ الصنبور بسبب الزحام. ضحك لها وضحكت له.. ضحكت تلك الضحكة التي تكشف عن أسنانها كلها في وقت واحد. لم تعد تلبس المريولة الصفراء المصنوعة من (تيل نادية) وانما تلبس بذلة المدرسة الإعدادية الزرقاء الأنيقة. سألته عن حاله وسألها عن حالها، وتظاهر بأنه لا يموت.. تظاهر بأن قدميه ثابتتان.. تظاهر بأنه لم يحلم بها كل يوم منذ ثلاثة أعوام..

حيته وانصرفت.. ووقف يراقبها وهي تشق طريقها مسرعة نحو البوابة وسط جحافل الأطفال، وكان هذا هو اللقاء الأخير...فعلاً...

فقط مر مرات عديدة أمام بيتها وراح ينظر للمدخل الرطب الذي قد تنعس فيه قطة مشمشية، وقال لنفسه:

-"يومًا ما سوف أصير رجلاً ناضجًا وسوف اجتاز هذا المدخل.."

لم يجتز المدخل قط، لكن الفكرة جعلت سنوات الحرمان محتملة..

من الغريب أنه لم يبذل أي جهد للبحث عنها. كانت أقدس من أن يدنسها بأسئلة أو يقف عند قارعة الطريق ينتظرها. ومن المؤلم أنها كانت من طراز فتيات النسيم اللاتي لا تسمع عنهن شيئًا أبدًا.. ليست متفوقة لترى

صورتها في الصحف، وليست طائشة ليتكلم عنها رفاقك.. كانت زفيرًا تكاثف على زجاج ذكرياتك ثم بدأ يتلاشى ببطء....

أحيانًا تُبعث في بعض القصائد، أو يقتحم جزء منها قصة له.. هناك بعض الرواسب الفرويدية التي تركتها له، وإلا فلماذا ظل طويلاً يفلت قلبه ضربة كلما رأى درية شرف الدين أو سحر رامي أو آلي مكجرو؟ هل تعرف الشيء الذي يجمع بين هاته الفتيات ؟.. إنه هي..!

أين هي الآن ؟

كثيرًا ما يقف يرمق الليل في الخارج ويتساءل هذا السؤال ويتمنى أن يجد إجابة عنه..

أين هي الآن ؟

ثمة احتمال لا بأس به أنها اليوم أم في الخمسين.. معلمة فيزياء بدينة صارمة. لابد أنها قضت خمسة عشر عامًا في السعودية.. في (الأحساء) على الأرجح. تضع على رأسها بونيه غريب الشكل يذكرك بخوذات الصليبيين في فيلم (صلاح الدين الأيوبي) ، وتعاني النقرس بشدة.. لديها ابنان هما (إلهام) و(مصطفى).. بالطبع تزوجت إلهام الآن ولديها طفل.. (مصطفى) لم يتزوج بعد ولا يكف عن مصادقة الفتيات ودخول البيوت غير جاد. الشكلة هي أن والديها

ظلا في مصر فترة طويلة دون رعاية الأم والأب لذا لم تكن تربيتهما أفضل شيء..

في هذا الصيف سوف تكتشف أنها مصابة بالتهاب الكبد سي.. هذا يهدد بأن يتوقف تعاقدها لو أن الحكومة السعودية أعادت تحليل دمها، لذا تقضي الوقت بين عيادات الأطباء تتساءل عن جدوى الحبة الصفراء والانترفيرون.. هل حقنة كورتيزون قبل التحليل يمكن أن تخدع المختبر ؟.. المشكلة الأخرى هي أنها قد تكتشف بؤرة سرطانية في الكبد بعد أعوام، ويكون عليها أن تختار بين التردد الحراري أو الحقن بالكحول.

مسكينة يا صغيرتي الجميلة.. رحلة طويلة قطعتها منذ كنت ذلك الغزال الأسمر في المدرسة، حتى وصلت إلى سرطان الكبد.. أنا آسف فعلاً..

ربما ليس الأمر كذلك..

ربما هي الآن تلف سيجارة أخرجتها من صدرها.. تبللها بلسانها ثم تبحث عن عود ثقاب خلف أذنها. تشعل السيجارة وتطلق سحابة كثيفة من منخريها، ثم تتربع جوار الفراش القذر.. (أم عواطف) تحاول أن تفرض سيجارتها عليها، لكنها لن تسمح لها بذلك...

أعوام مرت منذ قتلت زوجها طعنًا بالسكين في بنور رقبته، والسبب

أنه عرف أن عشيقها (عباس) على علاقة بها.. لو لم تفعل لقتلهما معًا.. المحامي لم يكن يؤدي عمله جيدًا وباعها. ما زالت أمامها أعوام طويلة في هذا المكان العفن، ولا شك أنها تستعيد ذكرى المدرسة الابتدائية عندما كانت شيئًا عزيزًا ثمينًا نظيفًا، وكانت لها أم تعنى بها وتكوي ثيابها، وكان هناك تلميذ أحمق يهيم بها حبًا ويعتقد أنها لا تلاحظ. هذا الغبي كان يمر أمام بيتها مرارًا ويستنشق الهواء.. هاو!.. هواء!.. يا ابن المجنونة!... ليتك تقدمت لي وقتها.. كنت سأوافق.. أي شيء كان أرحم مما صرت إليه...

هذا المصير صعب التحقق نوعًا لأنها من الطبقة الوسطى مثله.. نساء الطبقة الوسطى لا يذبحن أزواجهن، وإنما تفعل هذا فيكي وانصاف..

إذن أين هي الآن ؟

بعد نحو أربعين عامًا..

ربما هي الآن في الغرفة الباردة المعتمة تشعل لفافة تبغ أخيرة قبل أن تنهض. إن رأس المريض مفتوح والبروفسور (لارس جيلياد) ينتظرها في قاعة الجراحة. إن قدراتها المذهلة في استئصال الأورام المخيخية قد أثارت ذهول الكثيرين ومعظم أطباء أوروبا يحاولون أن يشربوا منها هذا الفن..

-"لا يجب أن أدخن.. التدخين يجعل يدي ترتجف"

يدا جراح الأعصاب لا يجب أن ترتجفا، ولكنها لا تستطيع التخلي عن لفافة التبغ.. بعد الطلاق من زوجها صارت السيجارة صديقها الوحيد في هذه البلاد الباردة : السويد. من حين لآخر تتذكر دفء مصر وشارع المدرسة، المدرسة الابتدائية وتندهش كلما تذكرت كيف تغير مسار حياتها بعد ما أنهت دراسة الطب.. كيف التحقت بتلك البعثة الدراسية في جراحة الأعصاب ولم تعد لمصر قط من حينها.....

حياة باردة قاسية.. لكنها ناجحة..

من قال إن النجاح يعني السعادة دائمًا ؟

ربما لم يحدث هذا السيناريو بالضبط.. لكن أين هي الآن ؟

هي من جديد تدخن بكثافة... كفاك تدخينًا يا مجنونة.. كلما تخيلت مكانك رأيت السيجارة في يدك..

إنها تقف هناك خلف الكواليس تراقب البنات يؤدين الخطوات المعروفة لباليه (جيزيل).. نضرات صغيرات السن لينات..

تدخل المدربة (أولجا بافلوفنا) لتقول لها إن العرض سيبدأ حالاً.. وإنه لا دور لها فيه.. يجب أن ترحل :

-"لقد انتهى عصرك كباليرينا.. يجب أن ترحلي.."

تقول في عصبية وهي تنفث الدخان:

-"ذهابي من هنا معناه مماتي"

لقد ضحت كثيرًا منذ تركت مصر لتدرس الباليه في الاتحاد السوفييتي وقتها، وكان عليها كذلك أن تدرس الشيوعية وتعتنقها.. لكنها استطاعت أن تكبر وأن تفجر طاقات مذهلة. كانت معلمة في المدرسة الابتدائية تقول لها: أنت خلقت كي تكوني بالبرينا...

لقد اشتهرت حتى لمست الشمس واليوم عليها أن تهوي للثرى...

لا.. لربما كان الانتحار هو الأفضل.. إيزادورا ماتت مخنوقة عندما التف شالها حول عجلة السيارة.. هي ستفعل الشيء ذاته لكن بكامل إرادتها..

لحظة.. يصعب عليها أن تكون بالبرينا على كبر..

إذن أين يمكن أن تكون ؟

ربما هناك في ميدان التحرير تحمل لافتة عليها (الشعب يريد إسقاط النظام). لقد تعبت وبح صوتها وسنها لا تسمح لها بالثورية إلى هذا الحد، لكن وجودها يحمس الشباب بلا شك.. عندما يرون امرأة في سنها تصيح فهم يتحمسون أكثر. شاب من الصارخين قدم لها زجاجة بيبسي وبصلة، فهتفت أنها أكلت. لكنه شرح لها أن هذا هو التقليد المتبع لمكافحة الغاز المسيل

للدموع...

اصمدوا يا شباب... حكومة اللصوص هذه سوف ترحل..

تصرخ وتسعل..

الطلقات تنهمر.. القناصة الذين أصر الجميع فيما بعد على أنهم غير موجودين يمطرون الشباب بالرصاص. مبارك يقتل أبناءه ليبقى يومًا آخر...

أرجو أن تحترسي.. ستكون نهاية مشرفة لكنها دامية جدًا.. لا أريد أن تضيعي مني بعد كل هذه الأعوام لأجدك جثة مهشمة الرأس يصعب التعرف عليها..

أسرعي.. جدي مكانًا بعيدًا....

أين هي الآن ؟

ربما سقط الفك المتحلل الآن بعد ما تمزقت الأربطة.. وخرجت دودة صغيرة من العين التي تحولت إلى تجويف.. لقد انفجر الجلد منذ أسبوع وتحررت البكتريا التي كانت تملأ الأحشاء..

القبر مظلم وقاس.. والأسوأ أنه حار جدًا.. التحلل يتم بسرعة. سن الخمسين سن مناسبة للموت.. ليست مبكرة جدًا فتفعمك حسرة على شبابك وليست متأخرة ليحاصرك الشلل والصمم وارتفاع ضغط الدم والعمى...

ترى أين هي ؟

ترى كيف كانت الأمور ستكون لو صارت له ؟ هل كانت نهايتها لتكون أفضل أم أسوأ ؟

هل يلتقيها يومًا ما في السماء في عالم آخر بمقاييس مختلفة ؟... وهل تظل معه للأبد وقتها ؟

لن يعرف أبدًا على الأرجح. فقط لو عرفتم أين هي وما مصيرها أرجو أن تبلغوه بما تعرفون...



قصة حب

من جديد تتكرر ذات المشكلة الشهرية: مقال مجلة الشباب يُسلم مبكرًا جدًا، وهذا يعني أنك سوف تقرؤه بعد نحو شهر لو كان لنا عمر. لا أعرف بتاتًا ما ستكون عليه الأمور وقتها. ولهذا أرجو أن تغفر لي لو كان المقال

يتكلم عن أمور لا علاقة لها بما يدور في ذهنك. ربما تكون نهاية العالم مثلاً، بينما أنا أتكلم عن قصة حب.. لست مجنونًا.. أنا فقط لست عرافًا..

لست مولعًا بقصص الحب التي يكون الشيوخ أبطالاً لها، ولا تؤثر في البتة. قبل أن تقول شيئًا دعني أذكرك بأنني لم أعد شابًا على الإطلاق. الفكرة هنا هي ولعي بالجمال والمثالية، لهذا كنت أتخيل العشاق دومًا من الشباب.. يخيل لي أن الشباب هم الوحيدون الجديرون بالحب، بينما الشيوخ يلعبون لعبة خبيثة يحاولون بها أن يأكلوا في ذات المطعم مرتين، أو يروا العرض السينمائي مرتين بتذكرة واحدة. في مسارح المولد كان رجل يحمل عصا غليظة يمشي بعد العرض بين مقاعد المتفرجين ليطرد من تسول له نفسه الانتظار قليلاً. هذا الرجل ليس موجودًا دائمًا وأحيانًا يحب الشيوخ أن يظلوا جالسين متمسكين بحقهم في أن يروا العرض من جديد..

قد يحب الشيخ فتاة صغيرة السن، وهذا خطأ جسيم، لكنه ممكن إذا اقتنعنا بأن الحب شيء خارج عن الإرادة. هناك قصة رقيقة جدًا لكاوي سعيد يحكي فيها قصة رجل ذاهب إلى عيادة طبيب متظاهرًا بالمرض، وهذا ليطلب يد ابنة الطبيب. عندما يأخذ منه الطبيب معلومات شخصية عن نفسه، يكتشف راوي القصة أنه أكبر من الطبيب!.. أكبر من والد حبيبته!.. هنا يأخذ علاج الضغط الذي كتبه له الطبيب وينصرف في حزن..

الأمر كما نرى هو مأساة تدعو للشفقة..

السيناريو الثاني هو حب الشيوخ.. أي أن الشيخ يحب سيدة عجوزًا. لا شك أن هذا الحب لا يخلو من العذوبة والالم.

في البناية التي كنت أسكنها قبل زواجي، كان هناك عدد لا بأس به من اليونانيين الذين بدءوا يعودون لبلادهم. سوف أستخدم أسماء مستعارة طبعًا. كانت الآنسة (إيرين) في الثمانين من عمرها.. كما لك أن تتوقع كان وجهها عبارة عن ورقة مبللة كرمشتها يد قاسية.. في كل سنتيمتر عشرات التجاعيد.. تطل على هذا كله عين منهكة لا تعرف ما رأته بالضبط في حياتها، لكنها توارت وراء سحابة بيضاء وذلك الغشاء الذي يطلقون عليه (ظفرة). وبالطبع كان هناك إحساس عام بالدموع يخيم على هذه العين.. تشعر أنها كانت تبكي أو موشكة على البكاء.. بالإضافة لهذا لم تكن تسمع تقريبًا..

يمكنك أن تراها هناك قادمة عند أول الطريق بقامتها المحنية وثوبها الذي لم تكن تغيره تقريبًا.. الجورب المتهدل الممزق في عدة مواضع، والشعر المشعث الأشيب. الصورة المثلى لساحرة عجوز ربما تلتهم الأطفال... لكنك تدرك بسهولة أنها امرأة نبيلة شديدة الكبرياء، ولسان حالها هو (نهارك سعيد يا جاري.. أنت في حالك وأنا في حالي).

كنت أحبها كثيرًا.. فهي تنقلني لأجواء أخرى.. عجوز يونانية تمشي في شوارع قرية ساحلية بين الصيادين الذين يجففون الشباك ويحتسون الأوزو.. ربما هي ذات القرية التي يرقص فيها زوربا اليوناني.. باختصار كانت تداعب الجزء الذي قرأ (كازنتزاكيس) في خيالي..

لا أعرف ديانتها، لكنها على الأرجح كانت كاثوليكية، وإن كنت لم أرها قط تذهب للكنيسة يوم الأحد..

نشيطة جدًا هي آنسة (إيرين). تذهب للسوق وحدها وتذهب للفرن لتقف في الطابور. دائمًا تحمل تلك الحقيبة المصنوعة من خيوط التريكو.. تبتاع بالضبط ما تريد من كميات. يصعب في مصر أن ترى من يبتاع ثمرة طماطم وثمرة خيار وسمكتين ورغيفًا مثلاً.. لكنها كانت تفعل ذلك..

إنها تعيش في غرفة على السطح.. كلما تصورت هذا انقطع نفسي وشعرت بأنني موشك على العودة للعناية المركزة. هذه بناية شاهقة.. بناية مرعبة من بنايات الماضي.. والطابق الثالث يعادل الطابق الثامن من بنايات اليوم الرقيعة.. هذه الآنسة كانت تصعد خمسة طوابق (من طوابق الماضي) مرارًا كل يوم..

على السطح تجد غرفتها..

دخلتها عدة مرات، ولم يخب ظني كثيرًا..

كانت الغرفة الضيقة قد صارت أروع مكان على وجه الأرض. مزهرية... أزهار ونباتات ظل عند المدخل.. ستائر عليها أزهار زاهية. نافذة مفتوحة تدخل منها الشمس، وفي الداخل منضدة صغيرة عليها دائمًا كعكة أو حلوى (كوكيز) صنعتها هي، وموقد صغير ، وفراشان صغيران..

هذا الجزء كان يداعب عالم ديزني في خيالي.. الجدة بطة تخبز كعك التوت وتضعه على النافذة، ومن الوارد أن يمر الدب ليلتهمه.

هل قلت (فراشان صغيران) ؟.. نعم.. ألم أقل لك أن أخاها الخواجة (خريستو) يعيش معها في هذه الغرفة ؟.. معلم قديم في الثمانين مثلها. يذكرك كثيرًا بوودي آلين بقامته النحيلة الضامرة وعويناته والابتسامة الواهنة الخجول على شفتيه...

هناك بعض الكتب باليونانية فلا أستطيع أن أعرف ما موضوعها..

من أين جاء هذان ؟.. لماذا يقيمان في مصر ؟.. لماذا لم يتزوجا ؟.. ما مصدر المال الذي يعيشان به (وهو ليس وفيرًا على كل حال). أسئلة لا أعرف إجابتها ولم تكن حالة سمعهما أو تجاوبهما مع الناس تسمحان بأن تروي فضولك..

الأيام تمر..

لم أعرف أن الخواجة (خريستو) كان يمر بحالة اكتئاب عنيفة. لقد طال العمر به أكثر من اللازم وهو ينتظر في صبر أن ينتهي الفيلم بلا جدوى.. أعرف هذا الشعور القاسي وأرثي له كثيرًا.. أن تصحو من النوم منتظرًا في لهفة قدوم الليل لينتهي يوم آخر..

حتى جاء اليوم الذي سمعنا فيه صراخًا عنيفًا.. هرعت للشرفة لأرى ما هنالك فوجدت ظاهرة غريبة.. لقد جن الجميع.. كل سكان البناية المقابلة ينظرون لسطح بنايتنا ويصرخون وكل من في الشارع ينظر لأعلى ويصرخ.. هكذا توصلت إلى استنتاج عبقري: هناك شيء ما..

هرعت للسطح، ولما كان الموقف غير معتاد فقد مررت بحالة لحظية من بطء التفكير، تلك الحالة التي لم يعان منها ابن جارتنا لحسن الحظ.. فهو ضابط شرطة معتاد على الأحداث العنيفة. كان قد هرع للسطح فركل الباب بعنف لينفتح، ولما دخلنا إلى الغرفة الجميلة رأينا الآنسة إيرين منهارة إلى جوار النافذة المطلة على المنور.. كانت في حالة لا تسمح بشيء سوى أن تجلس هكذا بلا حراك، ومن جديد فهم ابن جارتنا ما يحدث فمد يده خارج النافذة وعاد يحمل الخواجة (خريستو) من قفاه كأنه أرنب يتلوى محاولاً الفرار..

لقد كان اليوناني العجوز يقف على إفريز البناية خارج النافذة..

لحظات يستجمع فيها شجاعته قبل أن يثب..!

قال ابن جارتنا وهو يشعل لفافة تبغ:

-"كلنا نمر بحالة قرف يا عم خريستو.. وكلنا في أسوأ حال لكننا لا نثب من النوافذ!"

بينما العجوز يردد بلا توقف وبضعف غريب:

-"خريستو خلاص.. زهق.. خريستو موس عايز يعيش"

وهكذا عدنا لديارنا وقد عرفنا المأساة التي يعيشها الشقيقان.

الحقيقة أن خريستو كان ضعيفًا.. لكن الأدهى أنه كان أنانيًا.. لا أحد ينتحر ويترك أخته العجوز وحيدة في بلد أجنبي، والله أعلم بالضغوط النفسية التي مر بها على كل حال.. دعنا لا نأخذ مقاعد القضاة..

ذات صباح صحوت من النوم فعرفت أن الخواجة خريستو نجح..

لقد صحت أخته فلم تجده في الغرفة، وعندما ألقت نظرة إلى المنور وجدت جثته ملقاة هناك..

يبدو أنه اختار ساعات الفجر الأولى حتى لا يراه المتحمسون والمنقذون من أمثالنا. عرفت فيما بعد موضوع ساعة الذئب، وهي الساعات الأولى بعد

منتصف الليل، عندما نكون في أوهن حالاتنا نفسيًا وجسديًا.. في هذه الساعة ينتحر من أصيبوا باكتئاب، وتحدث النوبات القلبية وجلطات المخ لمن هم على استعداد لذلك..

لقد استبد به الاكتئاب في تلك الساعات.. لابد أنه نهض وحيدًا ووقف يرمق السطح الخالي في ضوء القمر.. أخته نائمة لا تدري شيئًا.. لابد أنه تذكر شبابه واليونان.... تذكر نفسه طفلاً سعيدًا نفيسًا يقرقر في فراشه وتلثم أمه قدميه البضتين في شوق..

لابد أنه فكر في هذا كله..

ثم وثب....

كان اليوم صاخبًا بالطبع.. لكن كل شيء انتهى..

من جديد عادت آنسة إيرين تبتاع رغيفًا وثمرة طماطم.. ولا شك أنها صارت تضع طبقًا واحدًا على منضدة الجدة بطة..

الأزهار ذبلت والنباتات لم تعد تجد من يعنى بها..

وفي ذات يوم لم تعد الآنسة إيرين هناك..

أخبرني الجيران أن الآنسة كانت شابة يومًا ما.. كانت حسناء بارعة الجمال. وكان هناك شاب وسيم فقير يهيم بها حبًا هناك في اليونان. لكن رفض

أهلها أن يزوجوها له.

اليوم صار الشاب رجلاً ناضجًا في التسعين من عمره، والطريف أنه لم يتزوج لأنه ظل على حبه لتلك السنيورة التي بلغت الثمانين. الأخبار تصل اليونان بسرعة وقد عرف بأن حبيبة قلبه وحيدة بعد ما انتحر أخوها، وهي في بلد أجنبي.. لقد صارت حرة.. وأحوج ما تكون له..

هكذا طار فتى الأحلام إلى مصر وتزوج حبيبة قلبه ذات الثمانين ربيعًا، وأركبها على حصانه الأبيض عائدًا بها إلى اليونان.....

هذا نموذج فريد للشتيتين اللذين يظنان كل الظن ألا تلاقيا.. لقد التقى القلبان بعد ستين عامًا على الأقل!.. ويبدو أن فرصة الظفر بابنة الجيران ما زالت متاحة أمامك عندما تبلغ سن الثمانين!

هذه من القصص النادرة التي أبتلع فيها غرام الشيوخ.. فيما عدا هذا لا أحب هذه السيرة على الإطلاق!

الفهرس